رياض المالكي

العودة إلى سواء السبيل





العودة
إلى سواء السبيل

العودة إلى سواء السبيل/ رياض المالكي .- دمشـــق: دار الفكر ٢٠٠٧-١٢٨ص؛ ٢٥ سم.

١- ٣٢٠,٩٥٦ م ا ل ع   ٢- ٢١٨,٨٣ م ا ل ع
٣- العنوان   ٤- المالكي

مكتبة الأسد

رياض المالكي

العودة
إلى سواء السبيل



الرقم الاصطلاحي: ٢٠٤٦,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-707-7
الرقم الموضوعي: ٩٢٠
الموضوع: التراجم والسير
العنوان: العودة إلى سواء السبيل
التأليف: رياض المالكي
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ١٢٨ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر
دمشق - برامكة
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail:fikr@fikr.net

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

٢٠٠٨
دمشق
حاضنة اللغة العربية

الطبعة الأولى
المحرم الحرام ١٤٢٩هـ
كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٨م

المحتوى

* * *

الإهداء

إلى الَّذين ضَلُّوا ثمَّ اهتدوا

دمشق صيف عام ١٩٨٨م

رياض المالكي

المقدمة

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٥].

صدق الله العظيم

من حق الشعب على ممثليه في المحافل السياسية والمناصب العامة، أن يطّلع على حصيلة آرائهم وأفكارهم في ضوء النشاطات التي شاركوا فيها، والتجارب التي تمخَّض عنها إسهامهم في خدمة القضايا العامة، فهي ملك خالص له، ما دام هو صاحب المصلحة العليا التي من أجلها يكافح العاملون المخلصون من رجال السياسة والأحزاب، وهم مطالبون بحكم نيابتهم عن الأمة، بتقديم الحساب عاجلاً أو آجلاً. سواء أحالفهم التوفيق في مساعيهم أم لم يحالفهم.

وها أنذا أدلي دلوي في هذا الغور العميق الذي غالباً ما تغوص فيه الحقائق وتختفي، لأنَّ أكثرية العاملين في الحقل العام يحجمون عن نشر مذكراتهم، تقاعساً منهم، أو تهرباً من مصارحة أبناء وطنهم بخفايا السياسة وبالنتائج التي توصلوا إليها في نهاية المطاف.

وسأستشهد، خلال عرض وجهة نظري، بآراء بعض المؤرخين والمفكرين والباحثين الذين التقيتهم في نظرتنا للأمور. وليس لي من هدف سوى محاولة وضع لبنة صغيرة في بناء مستقبل هذه الأمة التي أعتز

بالانتماء إليها، وآمل أن يكون غدها مشرقاً وضاءً كما كان ماضيها المجيد.

وقد أعددت كتابي عداً مرتكزاً على تجربتين هامتين مررت بهما في حياتي، كانت الواحدة منهما في سياق كفاحي السياسي، والثانية منهما حينما حللت ضيفاً لدى الرحمن في البيت العتيق، يوم سعيت لتأدية فريضة الحج.

نبهتني التجربة الأولى إلى التصدع الخطير الذي يحدث في صفوف القوم عندما ينقسمون إلى يمين ويسار، ويتفرقون شيعاً شتى، وأحزاباً متناحرة، وينغمسون في صراعات مريرة على السلطة، يتلهون بها عن مقارعة العدو الجاثم فوق تراب وطنهم، المغتصبِ حقوقهم، والمفتئت على مقدساتهم، والساحق كراماتهم، والمدنس شرفهم.

ودلتني التجربة الثانية على السبل الناجعة التي يمكن أن تساعد على جمع الشمل، وتوحيد الكلمة، وتعبئة الصفوف، وحشد القوى لخوض معارك الكفاح والتحرير، والانعتاق من حالة العبودية والاستذلال التي يعيشها عرب اليوم وجماهير المسلمين في عصرنا الحاضر.

فحينما نُدِبْتُ لترشيح نفسي في الانتخابات التكميلية التي جرت خلال عام ١٩٥٧، لإملاء الكرسي النيابي الشاغر عن مدينة دمشق، كان علي أن أخوض معركة حامية الوطيس، أردتها أن تكون مباراة ودية، يدور فيها التنافس على كسب ثقة الشعب. ولكن بعض مؤيدي منافسي، وهو عالم فاضل، كان زعيماً لمجموعة دينية شديدة التعصب، شاؤوا إعطاء المعركة الانتخابية طابعاً دينياً صاخباً، وغَلَوْا في تطرفهم فوصفوها بأنها صراع بين الإيمان والكفر. وراحت بعض النشرات الصادرة عنهم تقذفني بالضلال، نظراً لأن قوى اليسار أيدت ترشيحي وساندتني في قصدي الفوز بالهدف مدار السباق، بوصفه هدفاً سياسياً دنيوياً.

وكان عليّ أن أوضح لجمهور الناخبين طبيعة المرحلة السياسية التي كانت تجتازها البلاد، فبالإضافة إلى المنهاج الذي أذعته في مطلع الحملة الانتخابية، مستمداً خطوطه العامة من مبادئ الدستور السوري النافذ آنذاك، لجأت في المهرجان الختامي الذي عقد قبيل موعد الاقتراع، إلى توجيه الخطاب للحضور، موضحاً حقيقة انتمائي القومي والروحي، متجملاً بما يُمليه عليّ الدين الإسلامي من أدب الحوار مع الناس.

وإن إلحاق صورة ذلك الخطاب بهذا الكتاب مع منهاجي في الانتخاب، يعطي فكرة عن ذاك الحوار الذي خضته في تلك المرحلة من عملي السياسي، وإن كنت يومئذ أحد أفراد جيل اعتقد كثيرون من أبنائه، خطأً، أن "عَلْمَنة" الدولة، وفصل الدين عن السياسة، سيساعدان على تحقيق الوحدة الوطنية، والظفر في معارك التحرير والبناء. وأسرف بعضٌ على أنفسهم عندما توهموا أن التنكر لعقيدة العرب المثلى، وقطع الصلة نهائياً بالدين الحنيف، سيفك المجتمع بأسره من ربقة التخلف، وسيشده إلى عجلة الحداثة والتقدم والرقي.

وقد توزع ولاء ذلك الجيل، بين قوى سياسية متعددة، ومنظمات حزبية متعارضة، وزعامات روحية ووطنية متناحرة. وكثيراً ما كانت وحدة الصف تتصدع، ثم تتحطم، بتأثير ذينك "التشرذم" والتناحر، وهذا هو عين ما ينشده أعداء البلاد الذين يجنون، على الأعم الأغلب، ثمرات التمزق الداخلي. وكان الشعب وحده هو الذي يعاني، في النهاية، من الخيبة والإحباط، ويدفع الثمن باهظاً من أمنه واستقراره، ومصالحه، وأمانيه في الحرية والسيادة، والعيش الكريم.

واليوم، بعد أن مَضت عدة عقود من الزمن، تعددت فيها المناهج والأساليب العشوائية، والممارسات الطائشة، وتباينت الآراء، وتمزقت الصفوف، وتشتت القوى الوطنية، وتتالت الهزائم، وتمادى الأعداء في

غيهم وتحديهم، وأمعنوا في اعتداءاتهم وجرائمهم، دون أن يقيموا أدنى وزن للأمة العربية قاطبة، وللشعوب الإسلامية جميعاً، بات من أهم الواجبات العودة إلى النفس، ومراجعة الحساب، أملاً بالاهتداء إلى الطريق القويم الذي يؤدي إلى نهضة الأمة من كبوتها، لتستعيد قوتها وإرادتها، وتحتل مكانتها اللائقة بين الأمم.

وفي سياق هذه المراجعة، كنت ألتقي، في السنوات الأخيرة، رفاقاً لي قدماء، تقاذفتهم تيارات سياسية جارفة، وفرقتهم أياديَ سبأ، وأبعدت بعضهم عن بعض آخر، لأن اجتماعهم في الأصل لم يكن على الإيمان لعقيدة راسخة؛ فسرعان ما انفرط جمعهم، وذهبت ريحهم، وضاعت جهودهم، وباء نضالهم بالخذلان والإخفاق.

كنا نستعرض معاً ما آلت إليه حال الأمة من تدهور وانحطاط، ونتساءل عن سبيل الخلاص، وكان فريقٌ يغلو في تشاؤمه، ويرى في حالة التخلف الراهنة ما يثبط العزائم، ويوهن النفوس، ويقعد الناس حتى عن التفكير بالخروج من الهوة السحيقة التي تردى إليها العرب.

وكان فريق ثان، يرى رأياً مختلفاً تماماً، ويعبر عن اعتقاده بأن فترة الركود مؤقتة، وأنه لا بد للعرب، كي ينهضوا، من الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة التي أخذت بها بعض الدول الأخرى، كاليابان مثلاً، عن طريق مجاراة دول الغرب في نهضتها العلمية والصناعية، دون إضاعة الوقت بالالتفات إلى الماضي، والتحسر على الأمجاد الغابرة، والبكاء على الأطلال.

أما الفريق الثالث، فكان على العكس، يصر على أن في استعراض الماضي وتجاربه الثرة، والاغتراف من تراث الأمة العربية الروحي والحضاري الغني، واقتفاء خطى السلف الصالح، والالتزام بشدة بما كان

سبباً في تحقيق الوثبة الجبارة للعرب الأجداد، الذين بنوا مجد هذه الأمة، وحققوا ذاتها وأصالتها، في ظلال الإسلام، فملؤوا الدنيا عدلاً، وعلماً، وحضارة ما زالت تشع على العالم بأسره، هو الذي سيساعد على النهوض من جديد.

وكان رأيي الذاتي، أن العرب يستطيعون العودة لممارسة دورهم الحضاري التليد، إن هم عقدوا العزم على ذلك، فجمعوا صفوفهم، وحشدوا طاقاتهم، واستعادوا وحدتهم، وانكبوا على العلم والعمل، بجد ودأب، وأدوا فريضة الجهاد بإخلاص، مهتدين بنهج الرسول العربي العظيم، وسيرة صحابته الكرام، وتابعيهم، الذين تزودوا بزاد العلم والتقوى، وعملوا بصدق، وجاهدوا بتفانٍ، فضربوا المثل الأعلى بما قدموه لقومهم، وللإنسانية من جزيل العطاء.

وكما انتفع عرب الأمس بنعمة الإسلام الذي جمع شملهم، ووحدهم، ونصرهم على أعدائهم، وأعز شأنهم، وجعلهم أئمة الأرض، حين عملوا بهديه، فمن مصلحة العرب اليوم أن يعودوا إلى سواء السبيل، كي يتخلصوا من حالة الذل والهوان التي آلت إليها أمورهم وأوضاعهم، بعد أن تمكن منهم أعداؤهم، بسبب ما بثوه في نفوسهم، من أفكار ومبادئ ومناهج، كان من حصادها فتور حماستهم لعقيدتهم الأصيلة، واعتناقهم عقائد مادية زائفة، حملتها إليهم رياح الغرب، فكان فيها بوارهم وخرابهم. فهل من فرص لتحقيق النصر بعد كل ما حاق بالعرب والمسلمين من هزائم، وبعد أن أخذت تتفشى في صفوفهم روح الاستسلام؟

وهل من سبيل للإصلاح بعد كل ما حل في نفوسهم من بوار؟

* * *

حوار على جبل عرفات

قال لي صديقي، القاضي الشرعي، مذكراً وحاضّاً: "إن إيمانك بالله تعالى والتزامك بدينك الحنيف يحتمان عليك الحج إلى بيته الحرام، وهذا كما تعلم فرض من فروض الإسلام الخمسة، لا مناص منه لكل من استطاع إليه سبيلاً؛ ومن الأفضل للمؤمن أن يؤديه عاجلاً خشية أن يقعده المرض أو الشيخوخة، وقبل أن تدركه الوفاة. ثم أضاف قائلاً: "وأنا قمين بأنك لو قمت بهذه الطاعة، فإنك ستعود إلينا بكتاب قد يكون فيه نفع للأمة".

قلت في نفسي: "أنّى يكون لي ذلك، وأنا لست بكاتب محترف، ولا عهد لي بمعالجة شؤون الفقه والدين، كما أني لست مؤلعاً بأدب الرحلات، كي أهيئ نفسي لرواية ما يقع عليه النظر من مشاهدات، ولسرد ما يخطر على البال من أفكار وتأملات، في سياق توجهي إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة". ومن المؤكد أن هناك الأعداد الغفيرة من الكتب والمصنفات التي تبحث في هذا الموضوع الشائق، وقد تصدى له عديد من العلماء الأفذاذ، والفقهاء الكبار، والرحالة المشهورين، من عرب وأجانب.

وغني عن الشرح والتفصيل أن الحج ركن رئيسي من أركان الإسلام، وفريضة لازمة يؤديها كل عام ألوف مؤلفة من المسلمين، يؤمون الديار المقدسة من أرجاء العالم الإسلامي الفسيح؛ فلو أن كل حاجٍّ عاد إلى

رهطه، من بعد أداء المناسك المفروضة عليه بسفر يضمنه مشاهداته، وانطباعاته وملاحظاته، لاستهلكت قراطيس الدنيا، ونفد مداد العالم كله، وثَقُلَتِ الأرض بما تدبجه أقلام الحجاج العائدين إلى ديارهم، بعد انقضاء هذا الموسم الديني العظيم.

كان هذا عام ١٩٨٢ ميلادية، وقد تتالت فيه الأحداث الجسام متسارعة فأقضت مضاجع العرب والمسلمين؛ وكان أشد تلك الأحداث خطراً، استمرار الحرب المجنونة بين العراق وإيران، وتفاقم الحرب الأهلية بين الإخوة اللبنانيين، والاجتياح الإسرائيلي الغادر لأراضي لبنان، وحصار بيروت، ومداهمة مخيمي صبرا وشاتيلا، والفتك بألوف اللاجئين الفلسطينيين المقيمين فيها، شيوخاً ونساءً وأطفالاً، وشباناً عُزّلاً من السلاح، على مرأى ومسمع من المحافل الدولية، ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان، ودون أن تحرك دول الجامعة العربية، الاثنتان والعشرون، ساكناً يذكر؛ وطبعاً لم يكن موقف دول العالم الإسلامي، الخمس والأربعين، بأرقى من ذلك بكثير، ولم يكن على أي حال مدعاة للتفاؤل والأمل، لا من قريب ولا من بعيد.

هزت هذه المأساة الدموية المفجعة مشاعر أصحاب الألوية الحمراء في أقصى المعمورة، وأثارت حميتهم، أكثر مما فعلت في نفوس ذوي الرايات السوداء والخضراء، ومقرري اللاءات الثلاث الأقربين.

والحديث عن روعة الحج، وتعدد مناسكه، والحكمة في أداء مختلف شعائره سيكون مكرراً ومعاداً، رغم ما يثيره في النفس المؤمنة من مشاعر البهجة والمسرة، ولكن ثمة مفارقات تخللت تلك المناسك واسترعت الانتباه، ودعت للتأمل والتفكير. كما أن حواراً طريفاً جرى على جبل عرفات في لقاء عابر مع شيخ حجازي عجوز، آت، مشياً على قدميه، من نجران، ومداخلة في الحوار من سائق سيارة نقل شاب قادم من أقصى

الجنوب. وقد دار الكلام حول الواقع المرير والمزري الذي يتخبط به العرب والمسلمون، كما أفضى الحوار إلى تلمس حقيقة راسخة، لا يجوز إغفالها ولا التغافل عنها. وهي أن العرب والمسلمين، على كثرتهم، هم في تخاذل وتقصير، وهم أبعد ما يكونون عن الطريق القويم، وعن الالتزام بعقيدتهم المثلى، وتعاليمها السامية التي تركز على وحدة الصف، وتدعو لمناجزة الأعداء، وتحض على الجهاد الذي هو ركن أساسي من أركانها.

بدأ العجوز النجراني الحوار بالسؤال عما يجري في لبنان.

كان الردّ: "إن لبنان هو مسرح لفتنة عمياء، ومجزرة رهيبة، واعتداء خارجي ليس له أدنى مبرر سوى تصميم الأعداء على الإمعان في قهر هذا القطر، وتخريب اقتصاده، وتشتيت شعبه، واستباحة أراضيه ومياهه وحرماته".

فسأل الشيخ: "أليس لبنان بلداً عربياً؟ أو ليس معظم سكانه من المسلمين؟" كان الجواب: "بلى، وايم الحق!..".

فعقب متعجباً: "لماذا يترك اللبنانيون إذن وحدهم في الميدان؟ وما بال العرب يقفون منهم ومن مأساتهم الدامية موقف المتفرج، ولا يهبُّون لنجدتهم؟ ولماذا لا يهرع المسلمون للذود عن إخوتهم في العقيدة والدين، ولمناصرتهم في معركتهم ضد الصهاينة المعتدين؟ وهل يجوز لهؤلاء وأولئك أن يقفوا من هذا البلاء الكبير موقف اللا مبالاة مما يحل في أرض العرب وديار الإسلام؟ وهل يجوز أن تبقى إسرائيل سيدة الموقف؟ وهل هي من القوة بالدرجة التي تستطيع معها بث الخوف والرعب في قلوب العرب لتقعدهم عن التصدي لها، وردعها عن مواصلة هجماتها الوحشية والغادرة على الأقطار العربية، تاركين إخوانهم

الفلسطينيين واللبنانيين وحدهم في الميدان، يتلقون ضرباتها الموجعة وصفعاتها المذلة، دون أن تتحرك النخوة في نفوس أبناء العروبة والإسلام، وتستفزهم لمجابهة اعتداءات إسرائيل المتكررة، ولمحو هذا العار الذي تلحقه حفنة صغيرة من الغرباء الدخلاء، القادمين من آفاق الدنيا لاغتصاب أرض ليست أرضهم، وتشريد أصحابها الأصلاء من مواطنهم، وطردهم من مساكنهم، وتشتيت أفراد أسرهم وأبنائهم، وتيتيم أطفالهم؟".

وهنا يتدخل الشاب ليقول: "لا تنسوا يا جماعة أن المعركة ليست مع الصهاينة وحدهم، ولا مع دولة إسرائيل بمفردها، بل هي في الحقيقة والواقع مع أعظم قوة في العالم، مع الولايات المتحدة الأمريكية وأداتها الحربية الجبارة؛ والعرب والمسلمون جميعاً لن يقووا على مقارعة هذه القوة العظمى، كيفما سعوا وجهدوا، ومهما أعدوا وحشدوا".

إنه ولا شك، منطق إنسان غر، يقصر إدراكه عن وعي الحقيقة، واستيعاب عبر الحياة ودروس التاريخ، ولذلك فإنه يدعو للرضوخِ للقوة، والخضوع للأمر الواقع، مع ما ينطوي عليه هذا الخضوع من ذل وهوان، وكان لابد من توجيه السؤال إلى ذاك الشاب المتكلم بلسان دعاة الاستسلام: "ترى، من أكثر عدداً، العرب ومَنْ وراءهم مئات الملايين من المسلمين، أم شعب فيتنام الشجاع، قليلُ عدد السكان؟".

أدرك الشاب اللبيب مغزى السؤال بسرعة، وأجاب دون تردد: "طبعاً إن العرب والمسلمين يفوقون شعب فيتنام، لا بالعدد فقط، بل بالإمكانات أيضاً".

فجاء السؤال إثر ذلك: "ألم يتوصل الفيتناميون، على ضآلة عددهم بالقياس إلى عدد العرب والمسلمين، ومن بعد حرب ضروس دامت أكثر

من عشر سنوات، إلى إلحاق الهزيمة الماحقة بالولايات المتحدة الأمريكية، ودحر قواتها الجرارة وطردها من جنوب فيتنام، على الرغم مما حشدته وزجت به في ساحة الحرب وميادين المعارك من قوى بحرية وبرية وجوية هائلة؟..".

وأمام قوة الحجة وسطوع البرهان لم يحر الشاب جواباً، وكانت الخلاصة التي انتهى إليها هذا الحوار العابر، هي أن العرب والمسلمين هم في تقصير معيب، وخلص الرأي إلى أن الأمر يدعوهم جميعاً إلى مراجعة أنفسهم، ليعودوا إلى رشدهم، وينفضوا عن كواهلهم غبار الذل والعار، وينهضوا جميعاً نهضة شخص واحد، للوقوف في وجه الأعداء، والذود عن حقوقهم، هذا إذا كانوا صادقي الإيمان حقاً، وجادين في طاعة الله ورسوله، قولاً وعملاً.



البساط الأحمر الممدود

ولعله من أبرز المشاهدات والمفارقات التي استرعت الانتباه لدى الاشتراك في ذلك الموسم القدسي العظيم، أن رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وفد في تلك الحقبة الحالكة إلى الأراضي المقدسة مرتين، المرة الأولى في زيارة رسمية للملكة العربية السعودية، فاستقبلته الحكومة فيها استقبالاً حافلاً يضاهي استقبال الملوك المتوجين والرؤساء العرب الفالحين؛ وكان من أبهى مجالي الحفاوة المنقولة على شاشات التلفاز، البساط الأحمر الممدود، وحرس الشرف المصطف كاللؤلؤ المنضود، وصدح الموسيقا بالأنغام الشجية، وعزف النشيدين الفلسطيني والسعودي، كان القوم في بهجة وفرح وسرور يحتفلون بعيد النصر، ويكرمون البطل وقد زينت هامته أكاليل الغار، متناسين حقيقة ما يدور على أرض المعركة من مأساة رهيبة، هي في حقيقتها أخطر من مأساة عرب الأندلس. وفي المرة الثانية، وبعد مضي أقل من أسبوع على الزيارة الأولى، عاد رجل المقاومة الفلسطينية الأول ليؤدي مناسك الحج، كمثل ما يفعل أي حاج آخر، وبخشوع تام، طوافاً حول الكعبة المشرفة، وسعياً بين الصفا والمروة، ثم وقوفاً في عرفات ومبيتاً في منى والمزدلفة، وإفاضة من المشعر الحرام بعد رجم إبليس اللعين، وتوجهاً بالدعاء طبعاً إلى رب العالمين أن يعز الإسلام وينصر المسلمين على أعدائهم الكافرين، وألا ينسى من رحمته وعونه جماهير الفلسطينيين وإخوتهم اللبنانيين.

مع أن الفرصة كانت جد مواتية، لقائد الثورة الفلسطينية، لو أُذِنَ له بذلك، أن يوجه النداء على الملأ، ويطلب النجدة من ملايين الحجاج القادمين من ديارهم البعيدة إلى الأماكن المقدسة، والمتوجهين بكليتهم وبأفئدتهم إلى رب الكعبة المشرفة، متوسلين إليه، تعالت قدرته، أن يتقبل طاعتهم، ويعفو عنهم ويغفر لهم، ويوفقهم لما يُحبُّه ويرضاه، وجميعهم يعلمون حق العلم أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وأنه لا يرضى عن القاعدين المتخاذلين، وأغلب الظن أنه لو شُفِعَ الدعاء باستغفار عام لعموم حجاج البيت الحرام لما توانى على الأقل العشر منهم عن التطوع والنهوض إلى الجهاد للالتحاق بإخوتهم المقاومين الفلسطينيين واللبنانيين الشرفاء الذين تصدوا بصدورهم وبأسلحتهم الخفيفة لنيران العدو تنطلق نحوهم من أدوات الحرب الجهنمية والأسلحة الفتاكة التي زودت بها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية القوات الإسرائيلية، وما من شك أن تعبئة ما لا يقل عن مئتي ألف متطوع من أصل مليوني حاج، معظمهم من الشبان الأصحاء والرجال الأشداء، كان يمكن أن يؤدي إلى تعديل موقف القوى المتصارعة في ميدان المعركة غير المتكافئة، الدائرةِ آنذاك على أرض لبنان العربي، وإلى التأثير في مجرى الأمور؛ ناهيكم عما يمكن أن تسفر عنه تعبئة شاملة لقوى العرب والمسلمين كافة، لو جمعتهم جبهة تحرير واحدة تحت راية الجهاد المقدس. ولكن ما كل ما يعلم يقال، وللخانعين القابلين بما عليه أحوال أمتهم من ضعة وهوان، وأوضاع وطنهم من تمزق وتفتيت، أن يستكينوا للأمر الواقع، وأن يقنعوا أنفسهم وأبناء قومهم وعقيدتهم معهم، بأن "ليس بالإمكان أبدع مما كان"، وبأن ينتظروا الفرج من الله العلي القدير، وهو خير مستعان.

غير أنه لا يجوز الاكتفاء بالاتكال على الله تعالى والتماس عونه وطلب المدد منه، والتقاعس في آن معاً عن إنفاذ أوامره؛ فهو جل جلاله، يحض على القتال ويمقت الأقوال التي لا تقرن بالأفعال. وقد رسمت تعاليم دينه الحنيف السبل الكفيلة بتأليف القلوب وجمع الشمل وتوحيد كلمة المسلمين لخوض معارك الجهاد ضد الأعداء الماكرين.

ولكن هيهات أن يتحقق مثل هذا الغرض في ظل الأوضاع الراهنة للدول العربية والإسلامية!.. فمع أن الإسلام هو دين التوحيد، والطريق المفضي إلى وحدة الصفوف، ورغم أن الحج هو الموعد الرباني المقرر، والموسم السنوي المحدد لعقد أوسع وأهم مؤتمر إسلامي يتيح المجال للقاء هذا الجمع الغفير من الحجاج المسلمين، وتدارس شؤون بلادهم، وتلاقي أفكارهم، وتوحيد جهودهم، والتغلب على أزماتهم، فهناك ثمة ألف عائق وعائق يحول دون تحقيق هذا الهدف المنشود. وتتبع هذه المعوقات من واقع حال الدول العربية والإسلامية جميعاً وأنظمة الحكم السائدة فيها. فهنا وهنالك تقف الحدود المصطنعة، والحواجز البغيضة، والتناقضات العديدة، والاتجاهات المتعارضة، والخلافات المتأججة، والمصالح الدنيوية والشخصية المتضاربة، تنهض كلها وفي آن معاً، معطلة ما يؤمل ويرتجى من مثل هذه المناسبة الكريمة التي هيأها ربّ العالمين لمصلحة عباده المؤمنين، ولخير البشر أجمعين.

مخططات عظيمة الخطر

طلع على العالم، في بحر عام ١٩٦٥، وزير خارجية المملكة المتحدة، وكان عضواً بارزاً في حزب العمال، والحزبِ الحاكم آنذاك في بريطانية، بتصريح على غاية كبيرة من الأهمية والخطورة بثته أجهزة الإعلام البريطانية، ذكر فيه أن منطقة الشرق الأوسط مقبلةٌ على سلسلة من الحروب الأهلية، والفتن الطائفية، والنزاعات الداخلية.

ومن المؤكد أن الوزير العمالي لم يكن عرافاً، ولم يكن يتعامل إطلاقاً مع النجوم للتعرف على شؤون الغيب ليعلم سلفاً ما تخبئه الأقدار لهذه البقعة المذكورة من الكرة الأرضية. ولكن الذي يستطيع المرء تقديره، هو أن النبوءة المعلنة بتصريح الوزير الخطير كانت ناشئة عن اطلاعه على ما كانت تعده مطابخ السياسة الاستعمارية في ذلك الحين؛ للزج بدول الشرق الأوسط وسكانها الآمنين في أتون مستعر من الحروب المحلية، والصراعات الدموية، مما سيؤدي حتماً إلى إنهاك شعوب هذه المنطقة الحساسة من العالم، تحقيقاً لأهداف الإمبريالية العدوانية ولمطامع إسرائيل التوسعية.

وإذا ربط المرء بين تلك المخططات الرهيبة، وآثارها المدمرة، ونتائجها المروعة التي تحققت على أرض الواقع، وبين السياسة الصهيونية التي عبر عنها وزير الخارجية الإسرائيلي السابق موشي أرنز، قبيل استلامه الحقيبة الوزارية، بعد أن كان سفيراً لدولة العدوان لدى حكومة الولايات

المتحدة الأمريكية، حينما صرح لبعض المجلات الأمريكية، أن أمن إسرائيل واستراتيجيتها مرهونان بإزكاء نار الخلافات بين دول المنطقة وشعوبها، وضربها بعضها ببعض، يدرك تماماً أن ما جرى، وما يجري، وما سوف يجري، في ربوع الدول العربية والإسلامية من اقتتال بين الإخوة، وسفك للدماء، واضطراب في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما سيحل بها من أزمات خانقة يأخذ بعضها برقاب بعض، مبيَّتٌ ومرتبط بالضرورة بوجود إسرائيل من جهة، وبسياسة الدول الاستعمارية من جهة ثانية، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية، زعيمة الإمبريالية العالمية، والاستعمار الغربي في العصر الحاضر، والدعامة الأولى والأساسية لإسرائيل، والضمانة الكبرى لوجودها وبقائها، واستمرار تحديها للعرب، وتكرار اعتداءاتها عليهم، وتهديدها لا لأمنهم واستقرارهم فقط، بل لوجودهم وبقائهم أيضاً.

ومن هنا تظهر النيات العدوانية لا لإسرائيل وحدها، بل للولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، لأنها بوقوفها إلى جانب إسرائيل، ودعمها لكيانها، مع يقينها التام بأن لا شرعية لهذا الكيان، تكون قد ساهمت بشكل غير مباشر في ممارسة العدوان على العرب، وهم سكان المنطقة الأصليون، وأصحاب الحق الشرعي في السيادة على وطنهم، وفي العيش على أرضهم بأمن وسلام.

وقد أكد المؤرخ البريطاني الشهير "أرنولد توينبي" في مقابلة إذاعية له بثتها إذاعة لندن، في أعقاب حرب تشرين (أكتوبر) عام ١٩٧٣، أن لا شرعية ولا قانون لقيام دولة إسرائيل، وعبر عن رأيه الصريح في أن اغتصاب اليهود، بالقوة والعنف، لبعض أراضي فلسطين قبل ثمانية عشر قرناً، لا يعطيهم الحق باعتبار فلسطين وطناً لهم، موضحاً "أن قيام دولة إسرائيل يتعارض مع مبادئ التاريخ التي هو مؤمن بها، ومشيراً إلى أن

إمكانية بقاء إسرائيل نتيجة لقبول الدول العربية إيجاد تسوية سلمية لمشكلة فلسطين بعودة إسرائيل إلى حدود ما قبل الخامس من شهر حزيران (يونيو عام ١٩٦٧)، سيكون استثناء للقاعدة". ولم يخف المؤرخ البريطاني "اعتقاده بأن الإسرائيليين لن يرضوا بهذا الحل لأنه يتنافى مع عقيدتهم القائمة على التوسع"، وهي في نظره "عقيدة غير قابلة للتطبيق".

ومن هذا الرأي السديد، وهذا الواقع الواضح الجلي، يستطيع الإنسان الحر والمتجرد عن الغرض أو الهوى، أن يستنتج أن الرغبة في السلام ليست كافية وحدها لإحلاله، وأن السلام لا يمكن أن يتوطد إلا على أساس متين وثابت من العدل المطلق والاحترام التام لسيادة الدول واستقلالها ووحدة أراضيها وسلامتها وأمنها واستقرارها.

وكل سلم يبنى على غير هذا الأساس يبقى سلماً مصطنعاً وزائفاً، ولا يمكن أن يدوم. وإن السعي لحل المشاكلات الإقليمية بالطرق السلمية، إذا لم يقم بحد ذاته على المبادئ الأساسية المقررة أو المتعارف عليها والمحددة في الشرائع الدولية؛ فإنه يشكل نوعاً من الخداع والنفاق، ولا يمكن أن يورث في النهاية إلا الإحباط والخيبة.

وفي سؤال وجهته جريدة "المصري" إلى الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس الهيئة العربية العليا جاء فيه:

"ما رأيكم في أمر عقد الصلح بين العرب واليهود الذي تلمح في عقده إنكلترة وأمريكة وفي ما يدَّعي من أن عقد الصلح يضع حداً للمطامع اليهودية، ويؤدي إلى حل سائر القضايا العربية المعلقة مع الدول الاستعمارية".

أجاب الزعيم الفلسطيني الراحل:

"أما الصلح الذي يحاول الإنكليز والأمريكيون واليهود عقده فإنهم

يريدونه على أساس الأمر الواقع والوضع الراهن في فلسطين. ولا شك أن صلحاً كهذا يعتبر انتحاراً للأمة العربية وقضاءً مبرماً على مستقبلها واستقلال أقطارها، بل هو عار يلحق بها مدى الزمن، وأعظم ضربة قاصمة تصيبها بعد كارثتها الفادحة بفلسطين، فهو ينطوي على اعترافها بالأمر الواقع الذي أسفر عن اقتطاع فلذة من كبد الأمة العربية، وضياع جزء من أجزاء العالم العربي وأقدمها وأكثرها أهمية عسكرية واقتصادية، والنزول عنه لشعب دخيل طامع معتد. فأية أمة من الأمم لديها مسحة من العقل أو ذرة من الشرف والكرامة تقبل بمثل هذا؟

ويعقب الصلحَ مع اليهود بطبيعة الحال، قيام مناسبات دبلوماسية، وعلاقات اقتصادية واجتماعية وغيرها، ويفسح المجال في الأقطار العربية (التي يطمع اليهود في السيطرة عليها وضم أقسام كبيرة منها إلى دولتهم) للدعاية الاستعمارية، والدسائس الصهيونية، كما يفتح أمامهم أسواق الأقطار العربية لتصريف المصنوعات اليهودية والإفادة بما فيها من المواد الخام التي تحتاج إليها الصناعات اليهودية، وبعبارة أخرى؛ يريد اليهود أن يجعلوا من فلسطين مركزاً صناعياً عظيماً في الشرق الأوسط، وأن يجعلوا الأمة العربية مستهلكة لمصنوعات هذا المركز، لأن اليهود لا يستطيعون بطبيعة الحال أن يزاحموا صناعات أوربة وأمريكة ويصدروا إليها مصنوعاتهم، فليس أمامهم إلا البلاد العربية لتصريفها فيها. وكذلك سيجد اليهود بفضل العلاقات السياسية والاقتصادية التي يحاولون إقامتها مع العرب إذا تم صلح، سبيلاً لنشر المبادئ والآراء والعقائد التي تجافي روح الإسلام وآداب العروبة. ثم إن عقد الصلح مع اليهود يجعل العرب مسؤولين دولياً عن المحافظة على الوضع الذي سينشأ عن قيامه، ويفقدهم حرية العمل، ويجعل من العسير عليهم القيام بأي عمل يرجى منه صيانة عروبة فلسطين وتحريرها في المستقبل.

وقد يقول بعض الناس: إن كل حرب قامت انتهت بصلح، وقياساً على هذا فإن الحرب بين العرب واليهود يجب أن تنتهي بصلح. وهذا القول مردود وحجة واهية، لأن ما وقع في فلسطين لم يكن حرباً بالمعنى الصحيح، بل كان غزوة استعمارية جارفة، واغتصاباً لقطر من أهله وتشريداً لأهله في الآفاق بعد سلبهم وانتهاب أموالهم وممتلكاتهم، فهو استعمار بأفظع أشكاله وصوره، وأشنع أساليبه، وأحقر وسائله؛ وإن الاعتراف بمثل هذا النوع من الاستعمار، بالصلح أو بغيره، سابقة رهيبة ستحترق بلظاها أقطار عربية أخرى على الطريقة نفسها التي اتبعها اليهود في فلسطين بالاتفاق والتعاون مع الإنجليز والأمريكيين.

أما الزعم بأن عقد الصلح مع اليهود يقر الأمن والسلام في الشرق الأوسط، ويضع حداً للمطامع اليهودية في الأقطار العربية فهو بعيد جداً عن الحقيقة والواقع.. ولو ادَّعى اليهود أنفسهم أن الصلح مع العرب يضع حداً لمطامعهم فعلى كل ذي عقل وإدراك ألا يأبه لهذا الادعاء ولا يخدع به، فقد برهنت الأيام والتجارب الكثيرة على أن اليهود لا عهد لهم ولا ميثاق".

وفي رسالة سابقة، كان وجهها الزعيم الفلسطيني نفسه إلى الحكومة الهنغارية سنة ١٩٤٣، أي قبل قيام دولة إسرائيل بعدة سنوات، فضح رئيس الهيئة العربية العليا المرامي البعيدة للحركة الصهيونية من وراء تنشيطها لحركة الهجرة إلى الديار المقدسة بقوله:

"تخفي الهجرة إلى فلسطين وراءها أمل اليهود الذي لم يزايلهم أبداً، وهو السيطرة على العالم بكامله عبر هذا المركز الاستراتيجي المهم: فلسطين".

وقد عبر الحاج محمد أمين الحسيني في رسالة وجهها في ٢ شباط عام ١٩٧٢ إلى الدكتور مجيد خدوري عن رأيه في ضرورة تمسك أصحاب المبادئ بحقوق شعوبهم:

"لتظل هذه الشعوب متمسكة بها وساعية في سبيلها، ولا بد أن تصل الشعوب إلى حقوقها العادلة ولو بعد حين. وأنا مؤمن بأن قضية فلسطين لا يمكن أن تحل حلاً جزئياً، لأن المسألة الصهيونية تقوم على مخططات بعيدة المرمى عظيمة الخطورة، وهي لا تشبه أي قضية استعمارية، فهي عاملة بكل الوسائل لاستئصال الوجود العربي من فلسطين، بل من المنطقة العربية كلها التي تتناولها مخططاتها. ولذلك لابد أن تظل القضية حية في نفوس العرب كافة، ولا بد أن يستمر الكفاح إلى نهايته مهما طال الزمن وعظم الفداء".

السادات يخرق اللاّءات

ويبدو أن حقيقة المطامع الصهيونية قد خفيت تماماً عن مدارك رئيس جمهورية مصر العربية السابق، أنور السادات، أو أنه تعامى عنها، حينما راح يسعى إلى صلح منفرد مع دولة الأعداء، دون اكتراث بالخطر الذي تشكله هذه الدولة على الأمة العربية، في حالتي السلم والحرب.

كان يفترض في الرئيس المصري أن يلتزم بقضية وطنه على الوجه الذي حدده الزعيم الفلسطيني الحاج محمد أمين الحسيني، أي بمواصلة الكفاح إلى نهايته، وهو الرجل العسكري الذي كان عليه أن يواصل القتال حتى يتم له النصر المؤزر، أو يموت فيه؛ ولكنه لم يتخل عن هذا الالتزام وحده، بل تخلى عن الالتزام بمقررات مؤتمر القمة العربية، المنعقد في الخرطوم عام ١٩٦٧، وأهمها القرار المتضمن اللاّءات الثلاث الشهيرة: (لا مفاوضة، لا تسوية، لا اعتراف).

ومن المذهل أن ينقلب هذا الشعار المنبثق عن المؤتمر إلى عكس مضمونه على أرض الواقع، إذ اندفع الرئيس المصري، دون تروٍّ ودون تفويض من أحد، إلى إجراء المفاوضة، وعقد التسوية، والاعتراف الكامل بالكيان الصهيوني القائم على العدوان والاغتصاب.. ولا يمكن تفسير هذا السلوك المريب، إلا بأنه الخيانة العظمى، يرتكبها رجل دولة حمل أمانة حكم بلده وقيادة شعبه، فخان الأمانة على أسوأ ما تكون الخيانة والمروق والانحراف.

وللتعرف على المنطق الذي سار عليه الرئيس المصري في نهجه المنحرف؛ نأخذ فقرة من كتابه المعنون بـ (البحث عن الذات - قصة حياتي)، جاء فيها:

"في استراتيجية السلام الأولى التي أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها في أن تعترف بها دول المنطقة.. ولكن بشرط أن يأخذ كل شيء وضعه الطبيعي..

فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧.

وبذلك عندما نجتمع في جنيف نعلن رسمياً انتهاء حالة الحرب التي استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة..".

ويمضي الرئيس السادات في حديثه إلى القول:

"كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم في سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتي في ١٩٧١ بل وأكثر، كما أكدت أنني على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التي يفرضها علي قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن، ولكن على إسرائيل أيضاً أن تفعل الشيء نفسه.. فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المغتصبة في سنة ١٩٦٧.. بهذا يتحقق السلام الدائم والعادل..

إن التزام الرجال الوطنيين الأحرار بالمبادئ القويمة وتمسكهم بالقيم السامية والمثل العليا التي يكافحون من أجلها، ولو لم يتوصلوا إلى تحقيقها في حياتهم، هو الذي يميزهم من أولئك الذين ينحرفون عن جادة المبادئ والقيم الوطنية، ويعتقدون أنهم بواقعهم إنما يخدمون وطنهم بصورة عملية مجدية.

ولو قارنا بين المنطق الذي أخذ به الزعيم الفلسطيني الراحل الحاج محمد أمين الحسيني وبين المنطق الذي سار عليه أنور السادات، والذي عبر عنه في الكتاب الذي يروي قصة حياته - وهو المنطق الذي دفع حياته ثمناً له - لأدركنا الفرق الشاسع بين المنطقين. فالمنطق الأول مرتكز على أساس متين من الإيمان المطلق بقدرة الشعوب على التوصل إلى حقوقها العادلة إن هي واصلت الكفاح من أجلها، والمنطق الثاني هو الذي يتخلى عن تلك الحقوق كلها أو جلها، تخاذلاً واستسلاماً لمشيئة العدو؛ وللأمر الواقع الذي تفرضه القوة الغاشمة، على حساب حق الشعب بالعيش في أرض وطنه حراً سعيداً.

ففي الوقت الذي أعلن فيه الرئيس المصري عن تمسكه بحقوق شعب فلسطين وعن عزمه على عدم المساومة عليها أو على شبر واحد من الأرض العربية التي اغتصبها الصهاينة سنة ١٩٦٧، ضبطته الأمة العربية والشعوب الإسلامية متلبساً بالتنازل عن كامل فلسطين، بجزأيها المغتصبين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، عندما وقع وثيقة الاستسلام في كامب ديفيد، دون أن يوفر لأهالي فلسطين المشردين من الأرض الفلسطينية المغتصبة والواقعة تحت الاحتلال الأجنبي، أي ضمانة لتقرير مصيرهم والعودة إلى ديارهم، ولا أدنى حد من فرص الأمن والطمأنينة والحماية من غدر أعدائهم، حتى من كان يعيش منهم في المخيمات في فلسطين ذاتها أو في الأقطار العربية المجاورة لها.

كان على الطرف المصري الذي وقع على اتفاقية كامب ديفيد الخيانية أن يحيط بالدوافع الاستعمارية الكامنة وراء قيام دولة إسرائيل، وأن يلم بما تحمله هذه الدولة المصطنعة، وبما تضمره الحركة الصهيونية من نوايا عدوانية، لا تجاه فلسطين وحدها، أو العرب كلهم، بل تجاه العالم أجمع، وهو لو فعل ذلك لتفادى اللعنة التي تنصب عليه إلى أبد الآبدين،

ووصمة العار التي حملها معه إلى القبر، ولوفر أيضاً على أمته العربية هذه الطعنة النجلاء الموجهة إلى صميم قضيتها المصيرية بعقده معاهدة صلح منفرد مع دولة الصهاينة، مخضعاً شعب مصر العربي العريق والمجاهد لنفوذ هذه الدولة الباغية التي حققت كسباً سياسياً ومادياً، برفع علمها فوق أرض النيل، وهذا طبعاً حلم كبير من أحلام الحركة الصهيونية العاتية وزعمائها الطامعين بإقامة دولتهم من النيل إلى الفرات.

وللإحاطة أكثر فأكثر بمطامع هؤلاء الصهاينة يجدر الرجوع إلى كتاب (اليهودي العالمي) الذي كان الصناعي الأمريكي الكبير هنري فورد قد وضعه منذ العشرينات من القرن العشرين، وحذر فيه الرأي العام الأمريكي من نوايا الحركة الصهيونية، وعزمها على حكم العالم أجمع، من خلال سعيها لاغتصاب فلسطين أولاً، ووضع يدها على منطقة الشرق الأوسط ثانياً، ثم بسط سيطرتها على العالم كله أخيراً، مسخرة من أجل ذلك جميع ما تملكه من وسائل شيطانية، وما تعده من خطط عدوانية وأساليب جهنمية، دون أن يغفل السيد فورد ما تحدثه أيدي اليهود من فساد وتخريب في حياة المجتمع الأمريكي.

ومنذ حوالي مئتي سنة أنذر الرئيس الأمريكي الأسبق، بنيامين فرانكلين، الشعب الأمريكي، من خطر اليهود على أمريكة في المستقبل إذا سمح لهم بالهجرة إليها والبقاء فيها؛ ومما قاله في خطابه التاريخي بمناسبة وضع دستور الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٨:

"إذا لم يطرد اليهود من الولايات المتحدة الأمريكية بموجب نصوص الدستور فإنهم سيفدون خلال مئة عام قادمة بأعداد كبيرة تؤدي إلى أن يحكموا البلاد ويديرونا ويغيروا شكل حكومتنا، وهي الأمور التي بذلنا نحن الأمريكيين في سبيلها دماءنا وأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الشخصية.

وإذا لم يطرد اليهود من بلادنا خلال مئتي عام فإن أطفالنا سوف

يعملون في الحقول لإطعام اليهود بينما اليهود أنفسهم في قصورهم يفركون أيديهم فرحاً وسروراً".

وفي صدد إظهار مدى سيطرة اليهود على مناحي السياسة الأمريكية ومراكز القوة والزعامة فيها وتسخيرها لخدمة مصالح إسرائيل ومخططاتها العدوانية، أورد المؤلف إيليا أبو الروس، في كتابه (اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية) فقرات من كتاب المؤرخ أرنولد توينبي يتحدث فيها عن المتناقضات اليهودية، وتاريخ الشعب "الشتيت"، وما جناه وسيجنيه على نفسه من حقده على الأمم والشعوب، وسعيه لخرابها.

إن اتفاق آراء كل من المؤرخ البريطاني العالم، والقائد العربي الفلسطيني الملتزم، والاقتصادي الأمريكي المجرب، ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية الفطن، يضع المجتمع الدولي بأسره أمام هذا السرطان الذي بدأ خطره يستشري بشكل بات يهدد مستقبل العالم كله.

فما هي مسؤولية دول العالم لدرء هذا الخطر الذي أخذ يعكر أجواء أمنها وسلامتها بما تحمله الحركة الصهيونية من نوايا وطموحات تتعارض بالكلية مع مصالح الشعوب المحبة للسلام؟

لقد خاضت دول أوربة في النصف الأول من هذا القرن حربين عالميتين رهيبتين، كانتا سبباً في إراقة أنهار غزيرة من الدماء البشرية، وفي إزهاق أرواح عشرات الملايين من الناس الأبرياء، فدالت معهما دول كبرى وإمبراطوريات عظمى، وبرزت إلى الوجود قوى جديدة احتلت مكان الصدارة على المسرح الدولي، وأضحت صاحبة النفوذ الأوسع والسيطرة الراجحة على العالم.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى تشكلت عصبة الأمم بزعامة الدول المنتصرة في تلك الحرب الطاحنة التي غيرت خريطة العالم، وكان من

جملة آثارها ونتائجها المباشرة تحطيم الدولة العثمانية المسلمة، وتمزيق رقعتها الشاسعة إلى أشلاء، وتجزئة الوطن العربي إلى دويلات، وفرض السيطرة الاستعمارية عليها واحتلال أراضيها، وبانتهاء الحرب العالمية الثانية تأسست هيئة الأمم المتحدة.

ويصف الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف عصبة الأمم في خطاب له ألقاه في المؤتمر اليهودي الذي عقد عام ١٩٢٢، ونشرته جريدة نيويورك تايمز في اليوم التالي، بقوله:

"إن عصبة الأمم فكرة يهودية، لقد خلقناها بعد كفاح دام ٢٥ سنة".

وبعد هذا القول لم يعد مستغرباً أن تحتضن هيئة الأمم، التي حلت محل عصبة الأمم، إسرائيل، وتجعل لها مكان الصدارة في مختلف مؤسساتها وقاعاتها ودواوينها ومحافلها.

ويعقب المحامي سليمان حاتم، في كتابه (الصهيونية العالمية وخطرها على البشرية) على كلام سوكولوف بقوله:

"ويجب ألا نستغرب عجز المنظمة الدولية عن قيامها بالمهام الإنسانية المنوطة بها وفشلها الذريع في إصدار أي قرار ملزم بحق الدولة الصهيونية المعتدية، لأن تلك المنظمة هي من إبداع الساسة الصهاينة، لا قوة لها ولا حول، وإن الإحصائيات التي أعقبت تأسيس منظمة الأمم المتحدة تشير إلى أن ٦٠٪ من موظفي المنظمة، من اليهود. وإن نسبة عدد اليهود إلى سكان العالم لا تزيد عن ١/ ٢٪".

كان الهدف المعلن لهيئة الأمم المتحدة هو الحرص على حماية السلام العالمي، وكان من الممكن أن يسود التعايش السلمي حياة المجتمع الدولي في العصر الراهن لو أن الهيئة الدولية التزمت حقاً بما ورد في ميثاقها من قواعد وشروط لتحقيق مثل هذا التعايش، وعملت فعلاً، لا قولاً، على إدانة العدوان، وردع المعتدي. ولكن هيهات أن يتحقق ذلك

مع وجود دولة إسرائيل، وهي النبتة الخبيثة التي احتضنتها المنظمة الدولية، تحت حماية دول الغرب الاستعمارية، حتى باتت مصدر شر مستطير وخطر كبير يهددان مصير السلام في العالم، لكونها جسماً دخيلاً على المنطقة العربية، وكياناً زائفاً مبنياً على الاحتلال والاغتصاب، وقوة استعمارية غاشمة غايتها التسلط والسيطرة والتوسع على حساب سكان المنطقة الأصلاء، وسبيلها إلى ذلك دوام البغي ومواصلة العدوان على مرأى ومسمع من المنظمة الدولية.

وكي لا يؤخذ رأينا في هذه المنطقة على محمل التحامل، نسوق إلى القارئ الكريم نظرة الأديب الجزائري المناضل محمد بشير الإبراهيمي، إذ يصفها بما يلي:

"هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحليت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه، وما هي إلا سوق تشترى فيها الأصوات بأغلى مما كانت تشترى به أصوات (الغريض) و (معبد)[١]، غير أن الأصوات القديمة كانت فناً يمتزج بالنفوس، وموسيقى تتسرب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم، وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتان ما بين الصوتين، وتباع فيه الذمم والهمم والأمم، بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى، فكان للشر، وعقدوه للعدل والتناصف، فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف.. ".

---

(١) الغريض ومعبد من أشهر المغنين في تاريخ الموسيقى والفن والغناء العربي.

العدوان

أسهب الفقهاء والعلماء ورجال الفكر والسياسة، في العصر الحاضر، في بحث قضية العدوان، وبيان صوره وأشكاله وآثاره على علاقات الدول بعضها ببعض، وتباروا في تحديد واقتراح طرق وأساليب محاربته، وفي الحض على ضرورة تكاتف المجتمع الدولي للعمل على ردع المعتدي ومعاقبة الدولة التي تعتدي على حقوق وسلامة غيرها من الدول.

أثير موضوع العدوان في مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الإفريقيين الذي عقد في دمشق بين ٧ – ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧، والذي كان للمؤلف شرف الإسهام في الإعداد والتحضير له، عندما كان عضواً في مجلس نقابة المحامين بدمشق، وبعد أن أسندت إليه أمانة سر المؤتمر.

واستهل الوفد الهندي التقرير الهام الذي قدمه إلى المؤتمر تحت عنوان (مبدأ العدوان في القانون الدولي) بالعبارة التالية:

"لقد نشأ القانون الدولي منذ بضعة أجيال مضت، ومن بعض دواعي الخجل أن الإنسانية عجزت حتى الآن عن إعلان العدوان خارجاً عن القانون وحتى عن إيجاد تفسير له".

وأفاض التقرير في فضح مناورات بعض الدول الاستعمارية للحيلولة دون توصل هيئة الأمم المتحدة إلى تفسير واضح للعدوان، واستعرض المداولات والمناقشات التي جرت في الجمعية العامة وفي لجنة القانون الدولي، والمساعي التي بذلتها بعض الدول الحرة والتوصيات التي قدمتها

لتحديد أعمال العدوان؛ وخلص التقرير في النهاية إلى وضع مشروع لتفسير معنى العدوان.

وقد وضعت اللجنة الرابعة المنبثقة عن المؤتمر تعريفاً دقيقاً للعدوان، أقرته الهيئة العامة، جاء فيه:

"تعتبر مرتكبة العدوان الدولة التي تقوم بداءة بعمل من الأعمال الآتية:

أ- إعلان الحرب على دولة أخرى.

ب- الغزو بالقوات المسلحة، ولو كان ذلك بغير طريق إعلان الحرب.

ج- قصف إقليم دولة أخرى بالقنابل من البر أو البحر أو الجو.

د- نزول قوات برية أو بحرية أو جوية حدود دولة أخرى، أو توجيه تلك القوة إليها، وذلك دون تصريح من حكومة تلك الدولة أو على خلاف ما يحدده هذا التصريح من حيث الزمان أو المكان.

هـ- الحصار البحري لسواحل أو لموانئ دولة أخرى.

و- مساندة عصابات مسلحة مشكلة في إقليم الدولة لمهاجمة إقليم دولة أخرى، أو رفض ما تطلب الدولة المعتدى عليها اتخاذه من إجراءات في الوسع اتخاذها في إقليم الدولة الأولى لحرمان تلك العصابات من العون أو الحماية.

ز- التحريض أو الإثارة عن طريق التزويد بالسلاح والمال أو الأشياء الأخرى المماثلة أو بأي وسيلة أخرى، أو تنظيمات تلك الدولة، وذلك باستعمال القوة.

ط- الدخول في مؤامرة مباشرة أو بواسطة عملاء مع أي شخص أو أشخاص لفرض الأغراض المذكورة في الفقرتين السابقتين (ز - ح).

ي- تحشيد قوات حربية أو القيام بمظاهرات عسكرية على حدود دولة أخرى أو على مقربة من تلك الدولة، لغرض التهديد، للوصول إلى قيام تلك الدولة بأي عمل ليست ملتزمة بالقيام به، أو إلى عدم قيامها بما هو من حقها أن تقوم به.

ك- الضغط الاقتصادي على دولة أخرى لتهديد أسس حياتها الاقتصادية أو خرق استقلالها الاقتصادي.

ل- اتخاذ إجراءات ضد دولة أخرى لمنعها من استغلال أو تأميم مصادر ثروتها.

م- فرض الحصار الاقتصادي على دولة أخرى.

ن- نشر الدعاية للحرب.

س- نشر الدعاية لاستعمال الأسلحة الذرية أو الجرثومية أو الكيميائية، أو سائر الأسلحة المدمرة للمجموع.

ع- مزاولة أي عمل أو نشاط أو تجارب علمية تكون مسببة أو يحتمل أن تسبب إصابات لشعوب الدولة الأخرى، سواء كان ذلك النشاط أو التجارب في داخل إقليم الدولة أو في خارجها أو في أعالي البحار أو في الجو، وكذلك التحريض على القيام بهذه الأعمال.

ف- نشر الأفكار الفاشية - النازية، أو التفرقة العنصرية أو الجنسية أو كراهية الشعوب الأخرى، أو الاعتياد على إنكار الحقوق الأساسية للإنسان سواء كان ذلك بالنسبة إلى فريق من مواطني الدولة أو ممن يقيمون فيها إقامة قانونية، تلك الحقوق المقررة في وثيقة إعلان حقوق الإنسان التي أقرتها الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ سواء كان ذلك عن طريق التشريع أو القضاء أو عن طريق الأعمال الإدارية.

فإذا استعرضنا الأعمال العدوانية والممارسات الإجرامية التي تباشرها دولة إسرائيل كل يوم، ومنذ قيامها، ضد عرب فلسطين بخاصة والدول العربية بعامة، لوجدناها تنطبق تمام الانطباق على الحالات التي عددها قرار مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الإفريقيين في صدد تعريف العدوان وتحديد حالاته وأشكاله المتعددة.

ونحن لو عدنا إلى القرآن الكريم، لوجدنا فيه، آيات بينات تنهى صراحة عن الإثم والبغي، وتدين المعتدي، وهي لا تكتفي فقط بشجب الاعتداء، بل إنما تحض على مجابهة المعتدي وتأمر بردعه.

وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤].

هذه القاعدة الأساسية تَتَّسِقُ حتماً وطبيعة الحياة الإنسانية، وتتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة البقاء المتأصلة في نفوس المخلوقات الحية.

وحق الدفاع عن النفس هو حق طبيعي، سواء أكان يتعلق بالأفراد أم بالجماعات، وله مكانته وأحكامه في نطاق القانون الوطني، أو في مجال القانون الدولي.

والاعتداء غير المشروع أو غير المبرر على الدول، سواء أكان واقعاً على سيادتها، أم ماساً باستقلالها، أو مستهدفاً سلامتها وأمنها، أو وحدة أراضيها، مثله مثل الاعتداء يقع على الأشخاص، مستهدفاً أرواحهم، أو مهدداً سلامتهم، أو منتقصاً من حريتهم، أو ماساً بشرفهم وأعراضهم، أو سالباً حقوقهم وأموالهم وممتلكاتهم.

وفي كلتا الحالتين، ينهض حق الدفاع عن النفس على قاعدة راسخة من الحاجة الماسة والطبيعية لحماية الفرد، والجماعة، والمجتمع.

وحالة الدفاع تبقى قائمة ومشروعة، ما دام الإنسان أو الجماعة هدفاً لعدوان خارجي، وتبررها وتبيحها ضرورة صد هذا العدوان ودرء أخطاره ودفع أضراره. فكما أن من حق كل فرد أن يَتَحَصَّن ضد أي اعتداء قد يقع عليه مستهدفاً حياته أو حريته أو عرضه أو ماله، كذلك من حق أي دولة يتعرض أمنها وسلامتها لخطر العدوان أن تتخذ من الاستعداد الحربي والاعتماد على القوة المسلحة، ما يساعدها على حماية نفسها والذود عن أراضيها، وعلى مواجهة أي حرب عدوانية أو هجوم مسلّحٍ قد يشن عليها.

فالدفاع عن النفس هو إذن حق مشروع، أقرته جميع الشرائع الدينية والدنيوية، حتى إن الطبيعة ذاتها حبت جميع الخلائق، مهما كبر حجمها، أو تضاءل شأنها، بما يساعدها على الدفاع عن كيانها ووجودها، وصدّ غارات أعدائها، ودفع كيدهم عنها، في مسعى دائب ودائم للحفاظ على وجود تلك المخلوقات، والإبقاء على الجنس والنوع.

وموقف الإسلام من العدوان ليس مجرد موقف أخلاقي بحت، بل إن الشريعة الإسلامية وضعت مؤيداً صارماً لردع المعتدي، حتى لو كان من المؤمنين. فقد أمرت بردع الفئة الباغية إذا ما اعتدت على فئة أخرى.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/٩].

وقد شرع القتال على أساس فكرة مجابهة المعتدي وصد العدوان. ولولا هذا المؤيد الصحيح والمنطقي، لاضطربت الحياة، وعمت الفوضى، وسادت العالم شرعة الغاب، حيث تكون الغلبة للقوي والويل والثبور للضعيف، ولانتفى السلام الذي لا يمكن من دونه أن يعيش الإنسان حياته في دعة وطمأنينة، وحرية وسعادة.

وما من شك في أن سعادة الإنسان هي غاية الغايات، والهدف

الأسمى، من أجلها يكافح الأحرار على مدى الأزمان، وفي كل مكان؛ وقد دأب الفلاسفة والحكماء والمصلحون منذ القدم، على وضع الأسس والمبادئ والنظريات الكفيلة، في أنظارهم، لدى حسن تطبيقها واحترامها، بتوفير أسباب هذه السعادة. وغني عن البيان أن الاعتداء على ذات الإنسان هو من أهم أسباب عذابه وشقائه، ولذلك تسعى الشرائع إلى محاربة المعتدي ووضع حد لعدوانه، وفرض العقوبات الزاجرة بحقه، والمؤيدات الرادعة له، حرصاً على توفير الأمن والاستقرار في المجتمع، كما تجهد الأنظمة الدولية لإرساء التعايش السلمي بين الدول على أسس وقواعد تكفل الأمن والسلام في العالم.



التعايش السلمي

أخذت مبادئ التعايش السلمي أهمية خاصة، منذ بدأ العالم يرنو بأنظاره، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، إلى رؤية عصر جديد، تنبذ فيه أساليب السيطرة الاستعمارية، وتنحسر أشكال الاحتلال العسكري لبلدان الدول الضعيفة، وتسوده روح الوفاق والصداقة، وتعمه مظاهرة التعاون الودي بين الدول.

وأصبحت نظرية التعايش السلمي تحتل مكان الصدارة في نطاق القانون العام والفقه الدولي، وأضحت تحوز على اهتمام أكبر من جانب علماء القانون ورجال السياسة معاً، في أوساط الهيئات الدولية، والمنظمات الإقليمية، وصارت تستغرق القسم الأعظم من أبحاثهم وندواتهم ومؤتمراتهم باعتبارها القاعدة الأساسية للتعاون الدولي، والمحور الرئيسي والأهم في توثيق العلاقات وعقد أواصر الصداقة بين مختلف دول العالم، على اختلاف أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وعندما يجهد علماء القانون، ومعهم المؤرخون المعاصرون، لتحديد مصادر القانون الدولي وتحديد الزمن الذي بدأت تنشأ فيه أولى تلك المصادر، نرى منهم من يرجع ذلك إلى حوالي مئة سنة، ومنهم من يعيده إلى ما قبل ذلك بقليل، ويؤكد على وجه الدقة أنه يعود إلى إعلان سان بطرسبرغ الصادر عام ١٨٦٨. وقبل أن يحاول أولئك العلماء والمؤرخون

التوجه بأبصارهم نحو المراحل التي سبقت الحضارة الغربية وعصر النهضة الأوربية، وهم إذا فعلوا ذلك، نراهم يقفزون إلى التاريخ الضارب في القدم، كتاريخ الصين القديمة، أو تاريخ كل من الحضارتين الهندية واليونانية، متجاهلين مرحلة من أخصب مراحل الحياة البشرية، وهي المرحلة التي حمل فيها العرب مشعل الحضارة إلى العالم أجمع، وبخاصة إلى القارة التي كانت غارقة في دياجير الظلمة والجهل والتخلف.

وقد حمل هذا النقص الخطير، في أعمال وأبحاث أولئك العلماء والمؤرخين، الكاتب الفرنسي ماكس فانتاجو (MAX VINTEJOUX) على أن يعيب على بني قومه في مقدمة كتابه (المعجزة العربية – Le Miracle Arabe) زيف الطريق التي يلقنون بها دروس التاريخ لأبنائهم، وفقدان المنطق في برامجهم التعليمية، حيث يعلمون طلابهم، في المدارس والمعاهد، تاريخ الحضارة مشوهاً ومبتوراً ومتقطعاً، مع ما يحدثه هذا التقطع من نتائج سيئة وآثار ضارة على تكوينهم الفكري، بسبب ما يخلفه في أذهانهم وثقافتهم من اضطراب وتشويش.

وقد انصب بحث المؤلف الفرنسي، في كتابه القيم، على إبراز دور العرب في إغناء التراث الحضاري، مشيداً بالحقبة التاريخية المعروفة باسم "القرون الوسطى" والتي يسعى المؤلفون الغربيون غالباً إلى طمسها، لدى استعراض تاريخ الحضارة، والإيهام بأنها كانت فترة تخلف ساد حياة البشرية كلها، في حين أنها، في الحقيقة والواقع، وكما أثبته الكاتب، بالحجة والبرهان، كانت هي الحقبة المشعة في حياة البشرية، تجلى فيها دور العرب المشرق والمشرف في تبديد الظلام الدامس الذي كان يكتنف العالم؛ وما من متتبع منصف لسير تطور العلوم يستطيع تجاهل فضل العرب على علوم الغرب خاصة وأثرهم في نشوء الحضارة الأوربية.

وفي ضوء هذا الاعتبار، يجدر إعطاء لمحة موجزة عن نشوء التعاون والتعايش بين الأقوام والشعوب. ففكرة التعايش السلمي قديمة قدم انتظام المجموعات البشرية على شكل قبائل وشعوب وأمم.

وقد عبر الزعيم السوفييتي ميخائيل غورباتشوف، السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، في ندائه الموجه إلى كل من شعبي الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، عقب التوقيع على اتفاقية نزع أسلحة الصواريخ النووية متوسطة وقصيرة المدى المعقودة في واشنطن عام ١٩٨٨، عن صلة القربى بين بني البشر وحاجتهم إلى التعارف، والتعايش، بقوله:

"يريد الناس العيش في عالم ديمقراطي وحر، يكون الكل فيه سواء، ولكل شعب الحق في خياره الاجتماعي من دون تدخل أجنبي. ويريد الناس معرفة الحقيقة عن بعضهم بعضاً، والتحسس أخيراً بالقرابة البشرية العامة العظمى بين الأمم والجماعات..".

وورد في القرآن الكريم، قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، تحديد أدق لأصل هذه القرابة مع التعبير عن حاجة الأقوام البشرية إلى التعارف والتعايش، عندما خاطب الناس، بأنصع لسان وأحلى بيان، بما جاء في الآية الكريمة من سورة الحجرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩].

فالأصل إذن في العلاقات بين الأقوام والشعوب، هو التعارف والتقارب لا التناحر والتنافر. وقد أرسى الإسلام هذه الفكرة على أساس مبدأ خلقي قويم، أي على أساسِ العمل الإيجابي الصالح مع تجنب الإثم والبغي والعدوان.

وقد أعلن رئيسا حكومتي جمهورية الصين الشعبية وجمهورية الهند، السيدان شو إن لاي وجواهر لال نهرو، في أعقاب الاجتماع، الذي عقداه، في أواخر شهر حزيران عام ١٩٥٤، المبادئ الخمسة للتعايش السلمي في ميدان القانون الدولي والعلاقات بين جميع الدول، وهذه المبادئ التي سميت آنئذ (بانشاشيلا) تقوم على:

أولاً- الاحترام المتبادل لسيادة الدول وسلامتها الإقليمية.

ثانياً- عدم الاعتداء.

ثالثاً- عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل من البلدين.

رابعاً- المساواة والمنافع المتبادلة.

خامساً- التعايش السلمي.

كما انبثق عن المؤتمر الإفريقي الشهير الذي عقد في مدينة باندنغ (من أعمال إندونيسية) في شهر نيسان ١٩٥٥، بين رؤساء ومندوبي تسع وعشرين دولة آسيوية وإفريقية، ميثاق للسلام تضمن عشرة مبادئ، لا تختلف في جوهرها عن مبادئ (البانشاشيلا).

وتعززت تلك الأفكار والمبادئ في عديد من اللقاءات الدولية والتصريحات السياسية، وهناك شبه إجماع على أن أي خرق لهذه المبادئ يعدُّ انتهاكاً للشرائع الدولية، ويشكل تهديداً خطيراً للسلام العالمي.

وكثيرة هذه المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين الدول، والتي أخذت تعتمد، في مبناها وجوهرها، على روح مقررات مؤتمر باندونغ، التي أضحت تشكل قاعدة أساسية في تحقيق التعاون الدولي، وفي نظم العلاقات المتبادلة بين الدول.

وكثيرة هي المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين الدول، والتي أخذت تعتمد، في مبناها وجوهرها، على روح مقررات مؤتمر باندونغ، التي أضحت تشكل قاعدة أساسية في تحقيق التعاون الدولي، وفي نظم العلاقات المتبادلة بين الدول.

وهذه المقررات تنسجم في الحقيقة انسجاماً كلياً مع جوهر هيئة الأمم، وقد أوحت مقدمة هذا الميثاق للدول الأعضاء في الهيئة الدولية بأن تعيش بسلام، وتتعامل بعضها مع بعض، بمنطق التفاهم وحسن الجوار، وأن توحد جهودها لصيانة الأمن والسلام الدوليين.

إن الوئام بين البشر أولى من الخصام، والسلام أرحم من الحرب، والتفاهم والتعاطف بين الدول أجدى لها من التنافر والنزاع، والصلح خير.

إنها بدهيات لا يمكن أن يختلف فيها اثنان من العقلاء، وبهذا المنطق، وفي ظل مبادئ التعايش السلمي، سارت الدول الأوربية نحو اتباع سياسة إيجابية بعضها إزاء بعضٍ، تجاوزت فيها نطاق التقارب والتعاون، واتجهت نحو تحقيق الاتحاد، رغم ما سبق حصوله بينها من عداوات شرسة، وحروب طاحنة، ذهب ضحيتها عشرات الملايين من أبناء دول أوربة.

وليست السوق الأوربية المشتركة إلا شكلاً جريئاً ومتقدماً من أشكال الاتحاد؛ وتسعى الدول في هذه السوق إلى توسيع رقعة وفعالية هذا الاتحاد، سواء كان ذلك عن طريق انضمام دول جديدة إليها، أو عن طريق إزالة الحدود والحواجز بين مختلف تلك الدول، مع الدأب الحثيث والمستمر لتوثيق وتعزيز مختلف الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيما بينها.

وقد أخذت الدول الرأسمالية جميعاً، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، تعيد النظر في سياستها العدائية، ومواقفها السلبية، من دول المعسكر الشيوعي، وراحت تتبارى فيما بينها في بناء علاقات جيدة مع هذه الدول، قائمة على أساس التفاهم والتعاون بين مختلف المجالات.

ومن أجل ذلك عقدت مؤتمرات القمة، وتكررت لقاءات زعماء الدول، لإزالة أسباب الخلاف والتوتر، ولإحلال الوفاق والتعاون محلّ التناحر والقطيعة.

وقد أعقب سياسة الوفاق بين الدولتين الأعظم انفراج دولي ظاهر، رافقه إطفاء بؤر التوتر المتعددة في كثير من أنحاء المعمورة.

ومع كل تلك الجهود والمساعي، ظلت ثمة بؤرة خطيرة، تهدد بانفجار هائل، في أكثر مناطق الكرة الأرضية حساسية، وأشدها خطراً، ألا وهي منطقة الشرق الأوسط.

والمعضلة الكبرى، التي تعاني منها هذه المنطقة ناتجة، في الدرجة الأولى، عن الصراع العربي الإسرائيلي. فهل من الممكن معالجة هذه المعضلة، بالاستناد إلى مبادئ السلام المستمدة من قواعد القانون الدولي المعاصر، ومقررات مؤتمر باندونغ، لإيجاد حل حاسم لها، وقد استعصى هذا الحل حتى الآن على هيئة الأمم المتحدة، بجمعيتها العمومية، ومجلس الأمن التابع لها؟

وبكلام صريح، هل يمكن أن يتعايش العرب والصهاينة معاً؟ وهل يمكن أن يسود المنطقة سلام دائم، مع وجود دولة إسرائيل؟



مفتاح السلام في آسية الغربية

السؤال المطروح بإلحاح هذه الأيام، أكثر من أي وقت مضى، في جميع أوساط محبي السلام في العالم هو: هل يمكن أن تنعم منطقة الشرق الأوسط بالسلام أخيراً، مع وجود دولة إسرائيل؟

أجاب عن هذا السؤال الهام، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، الصحفي الهندي الشهير ر. ك. كارنجيا، في كتابه (خنجر إسرائيل)، الصادر عام ١٩٥٧، بقوله:

"إن مفتاح السلام في آسية الغربية هو في أن يطلب من إسرائيل الرجوع من حيث أتت، ومن العرب أن يحافظوا على وحدتهم وأن يبقوا سلاحهم مصقولاً".

وأتى الصحفي ذاته على وصف دقيق لإسرائيل بأنها "نبتة تدين بوجودها إلى اللصوصية الدولية. وقد استخدمت باستمرار كطليعة للاستعمار الغربي".

إن كون إسرائيل قلعة للعدوان الاستعماري، وقاعدة اللصوصية الدولية، وكون مصلحة العرب في أن يتخلصوا منها، وفي إعادتها من حيث أتت، وأن يتأهبوا دائماً للدفاع عن بلادهم، هما اللذان أمليا على هذا الصحفي الحر الحل المنطقي والأوحد لقضية فلسطين، فيما أعلنه من رأي صريح بتحديد طبيعة إسرائيل العدوانية، وبإرشاد العالم إلى الطريق الصحيح المؤدي إلى تحقيق السلام، وبما وجهه إلى العرب من نصح

خالص بالحفاظ على وحدتهم، وبالتأهب الدائم لحماية بلادهم والذود عنها.

فولادة إسرائيل لم تكن في الأصل ولادة طبيعية، والمؤامرة الدولية التي أدت إلى قيامها من العدم، ليست بحد ذاتها وليدة أفكار تنشد الحق والعدل، وتسعى إلى إحلال السلام في هذه المنطقة الهامة من العالم.

ولذلك لا يجوز الركون لأصحاب هذه الأفكار، حينما يتباكون اليوم الدمَ المهراق الذي يسيل بغزارة، والضحايا البشرية التي تتساقط باستمرار على أرض فلسطين ولبنان، وعلى الجماهير العربية والشعوب الإسلامية ألا تنخدع بما تبثه أجهزة الإعلام الغربية من مناداة بضرورة الوصول إلى حل مشرف وعادل لقضية فلسطين، عن طريق المفاوضة بين العرب والصهاينة، بأمل تحقيق تسوية سلمية تضع حداً للصراع المستحكم بين الغزاة العادين وبين سكان المنطقة المعتدى عليهم.

إن الحل الذي يتصوره الساعون إلى مصالحة العرب ومغتصبي أرضهم هو كالصلح المستحيل بين الذئب والحمل؛ فما من مرة ركن فيها الحمل إلى وعود الذئب المعسولة بإحلال الوئام بينهما، إلا وكان الحمل الفريسة السهلة بين براثن الوحش الضاري.

فالطبيعة العدوانية لإسرائيل، وسجلها الحافل بالجرائم الوحشية التي دأبت على ارتكابها، لا بحق عرب فلسطين وحدهم، بل بحق الوطن العربي بأبعاده الشاسعة، تحتم على العرب أن يكونوا في منتهى اليقظة والحذر، وألا يتأثروا بتضليل وخداع دول الغرب لهم في محاولتها إقناعهم بإمكان الوصول إلى حل سلمي شامل وعادل لقضيتهم عن طريق المفاوضة، برعاية تلك الدول المعادية للعرب ولأمانيهم في الحرية والاستقلال والسيادة التامة على بلادهم.

ومن يستعرض المراحل التي مرت بها قضية فلسطين، منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى اليوم، يتأكد بجلاء ووضوح تامين، أنه ما من كرة دخل فيها العرب والاستعماريون الغربيون في مفاوضات، إلا وكان الخداع من جانب الغربيين هو السبيل الذي ينتهجونه للغدر بالعرب، وطعنهم في ظهورهم، واستلاب حقوقهم والاعتداء على حرماتهم، والنيل من كرامتهم.

فالعهود التي قطعها الحلفاء الغربيون للزعماء العرب، عشية اندلاع الحرب العالمية عام ١٩١٤م، بمنح الأمة العربية استقلالها، وبإعانتها على تحقيق ذاتها في دولة عربية واحدة، فيما لو انشق العرب عن الدولة العثمانية الإسلامية، لم تكن إلا وعوداً خلابة وكاذبة، سرعان ما نقضها الإنكليز والفرنسيون، عندما عقدوا سراً الاتفاقية المعروفة باسمي عاقديها (سايكس - بيكو)، والتي تعاهد فيها الطرفان المستعمران على تمزيق الوطن العربي إلى دويلات يقتسمانها ويخضعانها لسلطانهما المطلق وسيطرتهما الاستعمارية التامة.

ثم صدر وعد الحكومة البريطانية الموسوم بوعد بلفور، عام ١٩١٧م، معلناً اقتطاع أعز بقعة من أرض العروبة والإسلام إلى اليهود والصهاينة، المتناثرين في آفاق الدنيا والمنتمين إلى أعراق وجنسيات مختلفة ودول متعددة.

ولم يكد العرب يفيقون من الحلم الخادع الذي عاشوا فيه أيام الحرب العالمية الأولى، بأمل تحقيق أهدافهم القومية الكبرى، إذا ما عقد لواء النصر للحلفاء، ولم يكادوا يصحون من سكرتهم تحت تأثير الصدمات المتتالية التي أحدثها الفضح المبكر لاتفاقية "سايكس - بيكو"، ثم صدور وعد بلفور المشؤوم، حتى جاء زعيم الحركة الصهيونية الدكتور حاييم وايزمن، هو أيضاً، بالوعود المعسولة يقطعها للأمير فيصل ابن

الشريف حسين، بأن حلول اليهود بين ظهراني العرب سيكون مصدر خير ورخاء يعمان المنطقة العربية برمتها، بفعل الرساميل الجزيلة، والأدمغة الكبيرة، والخيرات الواسعة، التي سيحملها المهاجرون اليهود معهم إلى ربوع المنطقة العربية، ولكن الذي حصل، فيما بعد، هو عكس ما وعد به الصهيوني المخادع وايزمن، إذ ما كادت أقدام الغزاة اليهود تتوطد في بعض مناطق فلسطين، بفعل الدعم الاستعماري البريطاني لهم، حتى بدأت أظفار أولئك الغزاة البرابرة تنشب في أجساد الفلسطينيين العرب، دون وجل أو رأفة، وهدفهم المنشود هو انتزاع الأرض العربية من أيدي أصحابها الشرعيين، وطردهم منها، وتشتيتهم، ليصبحوا لاجئين تحت كل نجم وسماء، وليحل الصهاينة الغرباء محلهم في دورهم وممتلكاتهم التي نهبوها منهم بقوة الغدر والسلاح، وبالدعم الاستعماري، ولإقامة دولة مصطنعة تنهض سياستها على الشر والعدوان، والتعصب العنصري البغيض.

وعلى الرغم من أن الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة أصدرت بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٧٥ قراراً خطيراً يكشف عن الطبيعة العنصرية للحركة الصهيونية بوصفها لها بأنها "شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري"، ومع جميع الممارسات الإجرامية التي تلجأ إليها السلطات الإسرائيلية وعصاباتها المسلحة باضطهاد عرب فلسطين، مسلمين كانوا أو مسيحيين، والتنكيل بهم، فما زالت إسرائيل تحظى، لا بعضوية هيئة الأمم المتحدة فقط، بل وبتغاضيها المريب عن جميع الآثام والجرائم التي يرتكبها الصهاينة الغزاة المعتدون بما يخالف جميع الشرائع والأنظمة والاتفاقيات الدولية.

إن القرارات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة بإدانة إسرائيل بسبب اعتداءاتها المتكررة على الدول العربية، ولممارساتها الإجرامية ضد شعب

فلسطين، ولتنكرها وخرقها لجميع المبادئ الإنسانية والقيم الحضارية التي تحمي حقوق الإنسان وتحفظ كرامته، أصبحت لا تعد ولا تحصى لكثرتها وتعدد أسبابها، ولكن في كل مرة يصدر فيها واحد من تلك القرارات، تقابله إسرائيل بتحدٍّ سافر، واستهتار بالغ، وتعلن عن رفضها البات له، وعن عزمها على ضمه إلى ما سبقه من قرارات غير نافذة، ومكدسة في ملفات الهيئة الدولية والمنظمات المنبثقة عنها.

وعندما لجأت إسرائيل إلى اتخاذ إجراءاتها الوحشية في محاولة قمع المظاهرات الشعبية التي عمت مناطق فلسطين العربية، في أواخر عام ١٩٨٧، احتجاجاً على سياسة إسرائيل العدوانية وأساليبها البربرية والعنصرية، وبعد أن أعلن مجلس الأمن الدولي، في مطلع عام ١٩٨٨، قراره الصادر بالإجماع بإدانة تلك الممارسات اللاإنسانية، وبدعوة إسرائيل للعزوف عنها، ولإلغاء قرار طرد المناضلين الفلسطينيين من ديارهم، ونفيهم خارج وطنهم، عمدت السلطات الإسرائيلية إلى المبالغة في تصعيد أساليب القمع البربرية ضد الأهالي العزل، وإلى إطلاق النار على حشود المتظاهرين، وإلى قتل الرجال والنساء والأطفال، دون تمييز أو تردد، وإلى اجتياح مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بالدبابات الثقيلة، كرد فعل طائش ضد القرار الصادر عن مجلس الأمن باستنكار وإدانة الإجراءات الإسرائيلية المخالفة لميثاق الأمم المتحدة، ولشرعة حقوق الإنسان، ولاتفاقية جنيف المتعلقة بمعاملة السكان المدنيين في مناطق الاحتلال.

وقد أعلن رئيس الحكومة الإسرائيلية عن رفضه البات لاستقبال الأمين العام المساعد لهيئة الأمم المتحدة الذي أوفده مجلس الأمن إلى فلسطين لزيارة مناطق الاضطرابات واستقصاء الحقائق عنها، والتحقيق في أسباب تلك الاضطرابات والحوادث الجارية في مناطق الاحتلال، وفي الجرائم المرتكبة بحق أهالي فلسطين، وإعداد تقرير بالحالة الراهنة لرفعه إلى

المجلس الدولي. وراحت سلطات الأمن الإسرائيلية تضع العراقيل والعقبات في طريق المبعوث الدولي للحيلولة دون القيام بمهمته، وتمنعه من زيارة مخيمات اللاجئين، كيلا يطلع على حالة البؤس والظلم والشقاء التي يعانون منها، وهي لم تتورع عن قصف بعض المواقع التي زارها بالقنابل الدخانية العامة في أثناء زيارته لها.

والذي يشد الانتباه إلى أهمية تلك الحوادث وأثرها في الكيان الصهيوني ذاته، ما أحدثته تلك الحوادث في أوساط الجاليات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم بعامة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بخاصة، من هزات عنيفة وخلافات شديدة وانقسام في الصفوف، كما جرى في داخل فلسطين ذاتها بين قادة إسرائيل وحكامها وساستها وسكانها وجنودها ومختلف فئاتها الدينية والعلمانية وأحزابها السياسية، وفي هذا الواقع الجلي برهان ساطع على عدم قابلية اليهود للتفاهم وللتعايش بعضهم مع بعض داخل الكيان الإسرائيلي المصطنع الذي تتحكم بمقدراته النزعة الفاشية العنصرية المتأصلة في نفوس من يسمون الصقور المتصلبة، وهم غلاة الصهاينة الذين لا يمكن أن يتنازلوا عن طمعهم، أو أن يتراجعوا عن طموحاتهم الخيالية التي تشطح بهم إلى حد التصور بإمكان السيطرة على العالم كله.

ومن هنا ينشأ استهتار حكومات إسرائيل المتعاقبة وازدراؤها للأسرة الدولية قاطبة، وتمردها الدائم والمتكرر على مقررات الأمم المتحدة ورفضها تنفيذها بإصرار وعناد زائدين.

إن عربدة إسرائيل، وتطاولها على هيئة الأمم المتحدة، ورفضها العنيد والمتكرر لتنفيذ مقرراتها، واعتداءاتها اللئيمة والغادرة على بعض كبار ممثليها، كاغتيال الوسيط الدولي الكونت فولكه برنادوت، الرجل السويدي المحايد، على أيدي رجال العصابات الصهيونية الخاضعة لإمرة الزعامة الإسرائيلية، كل ذلك التراخي جعل من الهيئة الدولية هيكلاً

فارغاً، ومهزلة مضحكة، وحطَّ من قدرها واعتبارها المعنوي بشكل أصبح يُذَكرُ العالم بسالفتها عصبة الأمم المسؤولة عن اندلاع الحرب العالمية الثانية، بسبب تغاضيها الدائم عن غطرسة الدول الاستعمارية، واغتصابها حرية الدول المستضعفة، وتقويض سيادتها واستقلالها، وعجز المنظمة عن حماية حقوق الضعفاء.

إن من طبيعة المنازعات بين الدول، قابليتها للفض عن طريق المفاوضة، أو الوساطة، أو التحكيم، أو التقاضي أمام الهيئات والمحاكم الدولية، لأن تلك المنازعات تنتج، على الأعم الأغلب، عن المشاكل الإقليمية، أو تتعلق بالحدود، أو بالحقوق والمصالح المادية المتنازع عليها. ولكن عندما يتعلق الأمر بالعدوان الخارجي على الدول والشعوب، فالحل الأوحد للمشاكل الناتجة عن مثل هذا العدوان، هو عودة المعتدي من حيث أتى، وجلاؤه التام عن البلاد المعتدى عليها، برضاه أو وهو صاغر.

وهكذا، فلأن المأساة الفلسطينية ليست ناتجة عن نزاع على المناطق والحدود أو المصالح المادية، حتى يؤمل حسمها عن طريق المفاوضة، أو التسوية الودية، ولأنها وليدة صراع مصيري من أجل بقاء العرب ووجودهم، وسيادتهم على أرض آبائهم وأجدادهم، فلا يمكن لهذا الصراع أن يفتر أو ينتهي إلا بطرد الصهاينة الغزاة نهائياً من جميع الأراضي العربية المغتصبة، سواء كانت واقعة في فلسطين، أو في سورية، أو في لبنان، وسواء ما اغتصب منها عام ١٩٤٨، أو عام ١٩٦٧، أو عام ١٩٨٢، أو بعد ذلك، على حد سواء.

ولا يمكن قيام حالة من الرضا في نفس أي وطني غيور تربطه بوطنه روابط الرعوية والولاء، مع استمرار حالة الاحتلال، ودوام اغتصاب أي ذرة من تراب هذا الوطن.

الانسحاب من المنظمة الدولية

ثمة اقتراح وجيه قدمه منذ سنوات، مندوب حكومة الجمهورية العربية السورية إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، لاتخاذ قرار بطرد إسرائيل من عضوية هذه الهيئة، دون أن يلقى ذلك الاقتراح أدنى اهتمام، حتى من الدول العربية ذاتها.

ولكن ما دامت إسرائيل ماضية في تحديها السافر لمقررات الأمم المتحدة، طمعاً منها بالمنزلة الخاصة التي تتمتع بها، والرعاية السامية التي تلقاها من الدول الاستعمارية، فقد أصبح من المنطق والملائم أن تهدد الدول العربية والإسلامية، جدياً، بالانسحاب نهائياً من الهيئة الدولية، كرد عملي على استهتار إسرائيل واستخفافها بالمجتمع الدولي، ولتغاضي الهيئة عن رفض إسرائيل الوقح لجميع مقرراتها، وامتناعها عن تنفيذها، بدءاً بقرار التقسيم الصادر بتاريخ ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧، ومروراً بالقرارين رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ الصادرين عن مجلس الأمن بإلزام إسرائيل بالعودة إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧، وبالقرار الصادر عن مجلس الأمن أيضاً والقاضي بإلزام إسرائيل بالجلاء التام عن كامل الأراضي التي احتلتها في عدوانها اللئيم على لبنان عام ١٩٨٢، والتي ما زالت تحتل بعضها في الجنوب، وانتهاء بقرار مجلس الأمن الصادر في مطلع عام ١٩٨٨ والمتضمن التنديد بالأساليب الوحشية التي لجأت إليها سلطات إسرائيل لقمع المظاهرات التي قام بها الفلسطينيون تعبيراً عن استنكارهم لاحتلال أراضيهم واضطهادهم في وطنهم، ونهيها عن تنفيذ قرار نفي

وإبعاد بعض الشبان العرب، خلافاً لما تقضي به اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ المتعلقة بحماية حقوق الأهالي المدنيين الواقعين تحت الاحتلال ومنع طردهم من ديارهم.

إن التهديد بانسحاب مجموع الدول العربية والإسلامية مرة واحدة من عضوية الأمم المتحدة، ولو أنه سيأتي متأخراً جداً، فإنه سيضع الأسرة الدولية أمام مسؤولياتها لوضع حد حاسم لهذه المهزلة الكبرى التي تتمثل على مسرح السياسة الدولية. وسيتحتم آنئذ على باقي دول العالم أن تحدد موقفها الصريح، وتختار بين حرصها على صداقة العرب والمسلمين واحترام حقوقهم ومصالحهم مع ما يملكون من قدرات هائلة، وبين حربها على هذه الحفنة من الصهاينة الطفيليين، الذين شكلوا بالخداع والاحتيال والتآمر، دولة مزيفة، قوام وجودها الغدر والعدوان، وعماد سياستها الصلف والجور والطغيان.

إن فكرة الانسحاب من الهيئة الدولية لها ما يؤيدها في سلوك الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها التي لم تتردد في الانسحاب من منظمة اليونسكو لأسباب جد واهية، بزعم انحياز هذه المؤسسة الثقافية إلى جانب دول العالم الثالث؛ فحتى لو صح هذا الزعم، فإنه أضحى خليقاً بالدول العربية والإسلامية أن تقاطع هيئة الأمم، لتبنيها دولة العدوان، وتغاضيها عن جرائمها وآثامها وتكرار اعتداءاتها على الأمة العربية وعلى المقدسات الدينية الإسلامية والمسيحية وتحديها السافر للمجتمع الدولي.

لقد استبشرت شعوب العالم قاطبة، لدى انتهاء الحرب العالمية الثانية، بانبثاق فجر جديد من الأمن والحرية، عندما وضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة متضمناً المبادئ الصريحة لإرساء قواعد السلام العالمي على أسس بيِّنة من الحق والعدل. ولكن لم يكد الحبر الذي كتب به ذلك الميثاق الدولي يجف، حتى وجهت لأماني الشعوب وآمالها أخطر طعنة

في الصميم، ودق في كيان الأمم المتحدة أكبر إسفين مسموم، عندما باركت الجمعية العمومية للمنظمة الدولية قيام إسرائيل من العدم، وألحقتها بالأسرة الدولية لتحتل في أوساطها مكان الصدارة، وأصدرت لصالحها القرار المشؤوم بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وبدأت تغض الطرف عن انتهاك إسرائيل السافر لمبادئ الميثاق العالمي، وخرقها المستمر لأحكام الأنظمة الدولية، وراحت تتجاوز باستمرار عن جميع آثام الصهاينة، واعتداءاتهم المتكررة على أرواح الفلسطينيين وممتلكاتهم، وعلى أراضي الدول العربية، المجاورة لفلسطين أو البعيدة عنها على حد سواء.

وإذا اتخذ أي من مجالس أو منظمات هيئة الأمم المتحدة قراراً بإدانة ممارسات إسرائيل العدوانية وجرائمها الوحشية المنكرة، فإن مثل هذا القرار يصدر منها عادة على استحياء، ولا يقترن بالتنفيذ، كأن تلك الهيئة، والمنظمات المنبثقة عنها، تعتبر إسرائيل قدراً محتوماً، لا مناص للبشرية بأسرها من التسليم بوجوده، والانحناء أمامه.

إن الحالمين من العرب بإمكان التعايش السلمي مع إسرائيل إنما يخادعون أنفسهم، ويرتضون لأمتهم الذل والإذعان لهذا الظلم الفادح الذي حاق بها من جراء تآمر الدول الاستعمارية عليها، وتواطؤ الهيئة الدولية معها، بتكريس وجود إسرائيل مع ما يحمله استمرار هذا الوجود من أخطار تهدد كل عربي في حريته وكرامته ولقمة عيشه وبقائه على أرض وطنه، لأن إسرائيل ستظل مصدر ابتزاز وإنهاك للعرب في جميع أقطارهم، حتى لو تحقق السلم الزائف الذي يأمل به الانهزاميون من دعاة الاستسلام، الذين فقدوا الثقة بأنفسهم وبقدرة أمتهم على استعادة إرادتها وسيادتها على بلادها، دونما استثناء لأي بقعة من أراضيها، مهما صغر حجمها وتضاءلت رقعتها.

أما أولئك اليهود المعتدلون أو المسالمون الذين بدؤوا يشعرون بخطر المأزق الذي جرتهم إليه حركة الصهيونية المتآمرة مع القوى الاستعمارية، بحشرهم في هذا الأتون المستعر والمتخم بروح الحقد والكراهية والخصام، والذين أخذوا يندوون بالأساليب البربرية والممارسات القمعية التي تباشرها السلطات الإسرائيلية ضد شعب فلسطين الأعزل، فإن معارضتهم لقوى الشر في إسرائيل، وتوقهم للعيش بسلام مع العرب، يصطدمان بالضرورة، بما تنطوي عليه المؤامرة الاستعمارية الصهيونية من نوايا شريرة، وبما تسعى إلى تحقيقه من خطط عدوانية وأهداف توسعية، بقصد قهر العرب وإخضاعهم، واستباحة أراضيهم وحقوقهم.

إن رحيل إسرائيل عن الأراضي العربية هو الحل الأوحد لهذه الأزمة المستعصية التي لا تجدي في معالجتها، لا المناورات السياسية، ولا الأحابيل الاستعمارية التي تلجأ إليها الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية التي تبغي من وراء سعيها لإيجاد حل استسلامي للقضية الفلسطينية، تحقيق هدفين اثنين: الأول: هو الإبقاء على إسرائيل كرأس حربة لها في المنطقة تستخدمها لإنهاك دولها وتعويق وحدتها بما تمارسه إسرائيل من دس وتخريب واستنزاف لقدرات العرب وطاقاتهم، والثاني: استمرار بسط سيطرة الولايات المتحدة على البلدان العربية والإسلامية قاطبة ضمن خطتها الاستعمارية الرامية إلى الهيمنة على الكرة الأرضية برمتها، بحجة حملها مسؤولية قيادة العالم، وحرصها على زعامة النظام العالمي الذي خلفته الحرب العظمى الثانية.

فإسرائيل التي جمعت شذاذ الآفاق من أنحاء العالم، لتشكل منهم دولة مزيفة، هي وريثة قتلة الأنبياء والعظماء، قد أصبحت تجمعاً للمفسدين في الأرض الذين يحملون على امتداد تاريخهم الأسود الطويل، وزر الدسائس والفتن والمجازر وامتصاص الدماء بين الأقوام التي كانوا

يعيشون في جنباتها، مما يحفل بتفصيله وشرحه عديدٌ من الكتب والمؤلفات الصادرة بمختلف اللغات، والتي تفضح وقائع فسادهم وآثامهم وجرائمهم الشنيعة في كل مكان عاشوا فيه على مدى الزمن.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فإن سجلها الإجرامي متخم، هو أيضاً، بعدد لا يحصى من الجرائم الوحشية التي ارتكبها ويرتكبها الأمريكيون بحق الشعوب الأخرى، بدءاً من إبادة أقوام الهنود الحمر، سكان القارة الأمريكية الأصليين واختطاف الملايين من سكان إفريقية السوداء ونقلهم إلى القارة الجديدة واستذلالهم ومعاملتهم معاملة العبيد الأرقاء، وانتهاءً بالحكومات الاستبدادية التي دأبت الولايات المتحدة الأمريكية على فرضها على معظم الأنظمة الفاشية التي ترعاها "أم الحرية" بحنان زائد وتمدها بأسباب القوة والدعم، لتمعن في سحق الشعوب المستضعفة، وفي قهرها وسلبها حقوقها الكاملة في الحرية والعيش الكريم.

إن الحلف الجَهَنمي المعقود بين الدولة العملاقة، الولايات المتحدة الأمريكية، والدولة المسخ إسرائيل، مرده إلى حاجة هاتين الدولتين الباغيتين بعضهما لبعض، فإسرائيل بحجمها الحالي، وطبيعة تكوينها السكاني، وتناقضاتها الداخلية، واقتصادها الهزيل، وضآلة إمكاناتها ومواردها، لا تستطيع العيش وحدها، ولا يمكنها إطلاقاً الاستغناء عن الحماية والدعم اللذين توفرهما لها الولايات المتحدة الأمريكية، لأن هذين العاملين هما سبب بقائها واستمرارها، وهي إذا حرمت من المساعدات الأمريكية لسبب أو لآخر، وفي أي وقت من الأوقات، ستكون معرضة حتماً للزوال السريع. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية ترى في إسرائيل عونها الكبير، وقلعتها الأمامية التي تنفذ لها أغراضها وتحمي مصالحها، وتساعدها على إحكام سيطرتها على دول المنطقة؛

فإذا ما تخلت عنها، فإنها ستخسر بذلك أداة رهيبة تسخرها لخدمة أهدافها الاستعمارية، وأغراض استراتيجيتها الحربية، وللتخفيف من أعبائها العسكرية والمالية التي يتطلبها نشر جيوشها وأساطيلها في هذا الجزء الحساس من العالم، فيما لو أرادت الاعتماد على قوتها الذاتية، وعلى طاقاتها وحدها، لإخضاع العرب والمسلمين لنفوذها الحالي.

وطبقاً لما يقول المفكر الفرنسي فينيلون، "إن شقيين اثنين لا يتفقان إلا على فعل الشر"، فإن الطبيعة الشريرة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل جعلتهما تتحالفان على اتباع هذا النهج الإجرامي الشائن بحق عرب فلسطين ولبنان وباقي الأقطار العربية، وذلك بسلب أراضيهم وممتلكاتهم، ونهب ثرواتهم وخيراتهم وأموالهم، والإمعان في اضطهادهم، والتنكيل بهم وتشريدهم وتجويعهم وقتلهم من دون رحمة، ولا خوف أو وجل، ودون أن تقيما أي وزن أو حساب للرأي العام العالمي الذي يتابع حلقات المسلسل الإجرامي، وهما تنفذانه باستهتار وبرودة أعصاب مذهلين، ولا للتاريخ الذي يسجل لهما انتهاكهما للمبادئ الديمقراطية ولحقوق الإنسان، بمداد أسود فاحم، لتحيط الأجيال بما توجهه أيادي هاتين الدولتين الآثمتين للحضارة البشرية من طعنات يندى لها جبين أي أمريكي، أو يهودي عاقل يحمل في نفسه مشاعر الآدميين، ويتحسس ما يعانيه الآخرون من آلام وعذاب وشقاء، تحت كابوس الاحتلال والاضطهاد البغيضين.

وطبعاً لا تخلو الأقوام، أياً كانت أجناسها ومعتقداتها، من أناس أحرار شرفاء يظاهرون الحق ويقارعون الباطل، وتدل آراؤهم على ما تنطوي عليه نفوس الخيرة من رفض للظلم، ولو أتى على أيدي من يلوذون بهم من بني قومهم، أو من حملة عقيدتهم.

فلنأخذ مثلاً، الأديب "جان غولمييه"، وهو أستاذ شرف في جامعة السوربون، وأحد ألمع الأدباء الفرنسيين؛ إنه يشير في رسالة وجهها إلى أحد طلابه السوريين ونشرتها مجلة الثقافة الأسبوعية في ٢/ ١١/ ١٩٨٨، إلى اعتقاده بأن إسرائيل دولة عنصرية فاشية، وأنه عبر عن رأيه هذا أكثر من مئة مرة، وأنه انتسب في مدينة ستراسبورغ إلى فئة شعارها: "عدالة وسلام في فلسطين"، وألقى محاضرة عامة فضح فيها الحقيقة التي تخفيها الدعاية الصهيونية.

أما الدبلوماسي الأمريكي أدوين م. رايت، فقد عمل في كتابه (التضليل الصهيوني البشع) على فضح أساليب الصهيونية وأعوانها في محاربة موظفي وزارة الخارجية الأمريكية المؤيدين للحق العربي، وكشف "الستار" عن شراء ضمائر أعضاء الكونغرس الأمريكي، بمعدل ثلاثة آلاف وخمس مئة دولار للرأس الواحد، لتأييد قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٧؛ وأوضح كيف كان أصدقاء العرب في وزارة الخارجية يهانون ويكممون أو يطردون، وكيف أن بعض الصحف الأمريكية كانت تردد وجهة النظر التي كانت تتوقع سلفاً أن الصهاينة الذين وعدوا بجلب العدل والسلم والتقدم والاستنارة للشرق الأوسط والعرب سينقلبون إلى جبابرة قساة كشأن الضعفاء عندما يرتفعون. إن السيد غولمييه أتى إلى سورية عام ١٩٢٨ كمدير تدريس اللغة الفرنسية في ثانوية حماة وبقي في بلدنا، متنقلاً في مدنها طوال مدة الانتداب الفرنسي، فهو يعد من المستشرقين المنصفين الأحرار، ويكن لسورية ولشعبها العربي احتراماً ومحبة عظيمين، كما أنه يكن له تلاميذه السوريون المحبة والاحترام أيضاً.

وقد هزت الأحداث الدامية التي جرت على أرض لبنان العربي صيف ١٩٨٢، والجرائم الوحشية التي وقعت في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، ضمير الصحفي الإسرائيلي "جاكو بو تيمرمان": المولود

في أوكرانية عام ١٩٢٣، والذي هاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٢٨ وعاش فيها قرابة خمسين سنة إلى أن اعتقل عام ١٩٧٧، ثم نزح بعد الإفراج عنه إلى إسرائيل، فوضع كتاباً تحت عنوان (إسرائيل في لبنان - حرب الضمائر) أدان فيه بشدة الهجوم الغادر على لبنان، وعدد المخالفات الصريحة لمبادئ الديمقراطية والجرائم الخطيرة التي ارتكبت بحق السكان الآمنين ومخيمات اللاجئين، ودحض الحجج الباطلة التي تذرعت بها القوات الإسرائيلية لتبرير عدوانها على القطر العربي الآمن بزعم أنها حرب وقائية، وفضح الأكاذيب والحيل التي اتبعت لتضليل الرأي العام داخل إسرائيل وخارجها، ولإخفاء الطبيعة الاستبدادية للحكومة الإسرائيلية التي تعمل تحت ستار موهوم من الديمقراطية وحكم الأكثرية البرلمانية المزعومة التي لا تمت إلى شعب فلسطين بأي صلة شرعية. ودافع الصحفي الإسرائيلي عن منظمة التحرير الفلسطينية، ونفى عنها الاتهام بأنها تتسم بالنازية، وعاب على حكومة إسرائيل أساليبها الوحشية واللاإنسانية التي تمارسها بحق العرب، ووصم رئيس الوزراء بيغن بالجنون، وهذا ما أكده سير الأحداث فيما بعد، إذ أدى مرض هذا الإرهابي المجنون إلى تنحيته عن الرئاسة وعن مرابع السياسة والحكم.

إن الوجود تحت سقف واحد مع دولة يصفها أحرار العالم، والهيئة الدولية ذاتها، بالعنصرية والفاشية واللاإنسانية، أصبح مخلاً بالشرف والكرامة، وبات مجلبة للخزي والعار؛ ولم يعد ثمة مناص، للتخلص من هذا الخزي، ولمحو هذا العار من طرد إسرائيل من جميع المنظمات الدولية، أو الانسحاب منها بالكلية، احتجاجاً على وجود هذا الجسم الطفيلي الغريب فيها.

ومن الجدير بالملاحظة، في هذا المجال، التناقض الفاضح الذي تقع فيه الهيئة الدولية، عندما تحرم من عضويتها جمهورية ألمانية الاتحادية

وجمهورية ألمانية الديمقراطية محملة إياهما أوزار الحكم النازي البائد، وتقصي كذلك دولة جنوب إفريقية لكونها دولة عنصرية، وتحتضن، في آن واحد، دولة إسرائيل التي فاقت جرائمها جرائم جميع الأنظمة الفاشية والعنصرية في أي زمان ومكان. اللهم إلا إذا كانت الأمم المتعددة تعتبر إسرائيل قدراً محتوماً.



وعد ووعيد

هل إن حلول بني إسرائيل في أرض فلسطين قدر محتوم، على العرب والمسلمين التسليم به بقبول ورضا تامين؟ إن حلم اليهود بالعودة إلى أرض فلسطين حلم قديم جداً، يستند إلى زعم صدور وعد رباني ورد في التوراة. ولكن غلاة اليهود إذ يستمسكون بهذا الوعد، يتجاهلون وعيد الله لهم بالعود عليهم بغضبه ونكاله إن هم عادوا إلى بغيهم وجورهم وطغيانهم.

وفي القرآن الكريم، الذي جاء مصدقاً لما سبقه من كتب سماوية، كالتوراة والإنجيل، آيات بينات، يفسرها سيد قطب، في (ظلال القرآن)، بأن فيها إخباراً لبني إسرائيل بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم في الأرض، وتكرار هذا التدمير لتكرر أسبابه من أفعالهم، وإنذار بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض".. "وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً".

إن ديدن بني إسرائيل، وميلهم الدائم إلى الجور والبغي والعدوان، يجعل من المحتم أن يجروا على أنفسهم الويل والدمار من حيث النهاية؛ فكلما قامت لهم قائمة، وأصبح لهم قوة وسلطان، تعالوا وعتوا وأفسدوا، فكان مآل كيانهم وقوتهم إلى الدمار الكامل، والتشتت الشامل، إذ يسلط الله عليهم عباداً له أولي بأس شديد، يبطشون بهم بطشاً

يذوقون معه ويلات الغلب والقهر والذل، وجزاءً وِفاقاً لجرائمهم وآثامهم وعتوهم.

وورد في الحديث الشريف ما ينبئ بأن المسلمين سيقاتلون اليهود في آخر الزمان وسيقتلونهم.

وإن بعيدي النظر من اليهود أنفسهم يدركون هذه النتيجة الحتمية، ولا ينتظرون للمعاندين والمتغطرسين من أبناء طائفتهم الذين يصرون على المضي في طغيانهم ضد العرب، إلا الهلاك المحقق لهم ولدولتهم العاتية.

فإذا كانت عودة بني إسرائيل إلى أرض فلسطين مرهونة بوعد رباني، فإن الوعد نافذ لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد. أما وعيده: جلت قدرته، فإنه ينتظر كل جبار عنيد؛ وينطبق هذا الحكم الإلهي على الأفراد والأقوام.

وفي سياق الحديث عن ذينك الوعد والوعيد، روى لي أحد أصدقائي، وهو محام ثقة، حادثة سمعها من التاجر الدمشقي المعروف المرحوم هاني الجلاد، رئيس جمعية التجار في العاصمة السورية سابقاً. والقصة، بحد ذاتها جديرة بأن تروى لما تحمله في مجملها من مغزى عميق وعبرة لمن يريد أن يعتبر بالمصير المحتوم الذي ستؤول إليه الأمور في نهاية المطاف.

تتلخص الحادثة بأن التاجر السيد الجلاد سافر ذات يوم إلى فلسطين، إبان الاحتلال البريطاني وقبل قيام دولة إسرائيل بسنوات، واصطحب معه في سفرته تلك أحد السماسرة اليهود لعقد صفقة تجارية معينة في إحدى الأسواق الفلسطينية.

وبعد اجتياز الركب منطقة الحدود السورية عبر جسر بنات يعقوب،

بدأت تظهر في الأفق الأبنية والحصون التي شيدها المهاجرون الصهاينة في إحدى المستوطنات الواقعة هناك؛ فما كاد السمسار اليهودي يلمح تلك المنشآت، حتى أشاح بوجهه عنها، وأغمض عينيه، وواراهما بكفيه، وراح يتمتم بعبارة خافتة وغير مفهومة، مما أثار انتباه واستغراب التاجر الدمشقي الذي سأل صاحبه عن السبب الذي أثار فزعه، وحمله على التصرف على ذاك النحو الملفت للنظر.

وبعد إلحاح شديد من السائل، أجابه المسؤول الذي كان شديد التدين وذا اطلاع واسع على كتب الديانة اليهودية، ومحيطاً بمحتوياتها، أنه يرثي لحال أولئك اليهود المجانين الذين يؤمون هذه المنطقة المضطربة من العالم ليحفروا قبورهم فيها بأيديهم، شأنهم في ذلك شأن من "يسعى إلى حتفه بظلفه".

ولما استوضح السيد الجلاد رفيق السفر عن سبب هذه النظرة المتشائمة، كان الجواب:

"إن في التوراة ما ينبئ بني إسرائيل بأنهم سيلاقون نهايتهم فوق هذه الأرض المقدسة إن هم عادوا إليها".

وتحقيقاً للنبوءة ذاتها، وفي المنطقة ذاتها التي دارت فيه الحادثة المرورية قصتها آنفاً، لم تكد تمضي خمس سنوات على الحادثة المذكورة، إلا ونشبت المعارك عام ١٩٤٨ بين العرب والصهاينة المغتصبين، وشهدت الصهيونية الآثمة مصرع الأعداد الغفيرة من أتباعها المعتدين؛ وفوق أحد التلال المطلة على منطقة جسر بنات يعقوب، وهو التل المعروف بتل أبو الريش، تَمَكَّن جندي سوري واحد، هو الشهيد محمد خليل، تمكن من قتل ما لا يقل عن مئة مقاتل صهيوني دفنوا جميعاً في الأرض التي اغتصبوها.

ولو ترك الأمر لأمثال ذلك الجندي العربي البطل، ولضباطهم البواسل، وأعطوا الفرصة الكاملة لمواصلة القتال، لتمكنوا وفي وقت مبكر، من اجتثاث شأفة الغاصبين برمتهم من أرض العروبة الطهور.

ولكن بفعل السياسات الملتوية التي كانت تسير عليها الحكومات العربية المسيرة من دول الغرب الاستعمارية، وتحت ضغط أوامر الهدنة التي أصدرها مجلس الأمن لإنقاذ إسرائيل من الخطر الماحق الذي أخذ يهددها، وهي ما زالت وليدة، لم يمض أشهر على الإعلان عن قيامها، حيل بين المقاتلين العرب، وبين مغتصبي أرضهم، ريثما يتدفق سيل المساعدات العسكرية، وتصل الأسلحة الحربية الحديثة إلى أيدي الصهاينة، لإنقاذهم من ورطتهم، وإعطائهم فرصة الانتصار والظفر على العرب، ولو إلى حين لن يطول، مهما تمادى الصهاينة في غيهم وطغيانهم، ومهما بلغت قوتهم الحربية، ومهما تعاظمت المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تأتيهم من وراء الحدود ومن دون حساب.

إن إسرائيل تحاول عن طريق الأسلحة الفتاكة التي تزودها بها دول الاستعمار الغربي وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، خلق جوٍّ من الرعب والرهبة في نفوس العرب، وقد تصورت أنها بصنعها للقنابل الذرية، تستطيع أن ترعب العرب، وأن تقعدهم جميعاً عن مناجزتها؛ ولكنها ما كادت تخلق بنفسها ولنفسها هذا الوهم المخادع، حتى استيقظت، والفزع يملأ قلبها، على حقيقة مروعة، وهي أن ضربات الحجارة التي يقذف بها أطفال فلسطين جنودها أشد فاعلية وأعظم تأثيراً في نفوس رعايا إسرائيل من أداتها الحربية الجبارة وقنابلها الذرية.

يقول المثل الدارج: "على الباغي تدور الدوائر"، وتثبت كتب التاريخ

لكل من يطالعها ويحاول استخلاص الدروس والعبر منها، أن كل طغيان إلى زوال، وأن كل عدوان خارجي سيتحطم في النهاية، مهما طال الزمن؛ فكما انحسر الاستعمار الاستيطاني الفرنسي عن أرض الجزائر العربية، بعد احتلال دام مئة وثلاثين سنة، وكما دالت دولة الفرنجة الصليبيين عن هذه الديار المقدسة، من بعد احتلالهم لها قرابة قرنين من الزمان، كذلك ستتحطم دولة إسرائيل على صخرة إرادة الشعب العربي المكافح في فلسطين، وعلى أيدي المجاهدين العرب والمسلمين ذوي البأس الشديد الذين سيتوافدون من الأقطار العربية والإسلامية كافة. وينخرطون في كتائب الفداء، ويكيلون الضربات المتتالية لمغتصبي أرض وطنهم إلى أن يطهروها من الرجس الصهيوني. ولن يهدأ للعرب والمسلمين جميعاً بال، ولن يغمض لهم جفن، ما دام بيت المقدس مغتصباً، وما دامت أرض العروبة وديار الإسلام مدنسة بأقدام العدو الذميم؛ وهم سينهضون، في يوم قريب وقريب جداً، ويهبون هبة رجل واحد لاجتثاث أي أثر للغاصب الدخيل، كما فعل أجدادهم بالغزاة الصليبيين.

وهذه النتيجة الحتمية للعدوان يدركها عقلاء اليهود أكثر من غيرهم. وكان ناحوم غولدمان، رئيس المؤتمر اليهودي العام، قبل وفاته، ينصح قادة إسرائيل بالاعتدال في سياستهم، وبالتخفيف من غلواء متطرفيهم، وغطرسة صقورهم، تفادياً لردات الفعل في أوساط العرب والمسلمين، تقديراً منه أن إسرائيل لن تقوى على تحمل ما سيكال لها من ضربات ماحقة فيما لو توصل العرب والمسلمون إلى لَمِّ شملهم، وتوحيد كلمتهم، وهم يملكون من القدرات والإمكانات ما يساعدهم لا على تحطيم وجودها وحدها، بل وعلى مجابهة جميع القوى التي تقف من ورائها لتساندها وتشد من أزرها.

وفي تصريح لناحوم غولدمان نفسه، أذاعته وكالة الصحافة الفرنسية من دوسلدورف في ألمانية الغربية، ونشرته جريدة الأنوار البيروتية في العدد ٤٨١٧ تاريخ ٦ نيسان عام ١٩٧٤، قال:

"إن تنازل إسرائيل عن الأراضي المحتلة ليس كارثة، وإن موقف إسرائيل من هذه الأراضي يعود إلى الأفكار المتسلطة والهستريا الجماعية، وإن هذا الموقف هو أخطر على إسرائيل من التهديدات العربية".



مشروع استعماري سيتحطم

كشف المؤرخ البريطاني الكبير آرنولد توينبي في حديثه الإذاعي المشار إليه في فصل سابق من هذا الكتاب عن حقيقة تاريخية هامة، وهي أن اليهود ليسوا من سكان فلسطين الأصليين وأن دخولهم إليها قد تم بطريق القوة والعنف، وأن طردهم منها قد حصل آخر مرة قبل ألف وثماني مئة سنة.

وقد أكدت الحفريات الأثرية الجارية في العصر الراهن هذه الحقيقة بما ينهي الجدل حولها بشكل قاطع. ففي مقدمة كتاب (العرب واليهود في التاريخ - حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية) لمؤلفه المهندس الدكتور أحمد سوسة، أورد المؤلف قوله إنه:

"من الثابت أن سكان فلسطين الأصليين القدماء، وقد كانوا عرباً، هاجروا من جزيرة العرب إثر الجفاف الذي حل بها، فعاشوا في وطنهم الجديد "كنعان" أكثر من ألفي عام قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الأحداث، وقد أخذ الموسويون بعد ظهورهم في أرض كنعان بلغة الكنعانيين وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم. هذه حقيقة تاريخية ثابتة أيدتها المكتشفات الأثرية الأخيرة، وأخذ بها العلماء بالإجماع تقريباً".

ويعود الدكتور سوسة في مقدمة كتابه ليشير إلى أن من أهم ما أوضحته الاكتشافات الأثرية الجارية في منطقة الشرق الأوسط:

"ثبوت كون اليهود غرباء دخلاء على فلسطين وأن كل ما يملكونه من

المقومات الثقافية ومن ضمنها اللغة وكتابهم المقدس مقتبس من الحضارتين الكنعانية والآرامية، وهما من أصل عربي، وأن الأسماء التاريخية الواردة في التوراة سواء كانت أسماء شخصيات أو أسماء أماكن قديمة في فلسطين هي من أصل كنعاني عربي ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العبرية بزمن بعيد".

والذي يزيد من أهمية هذه المعلومات المستندة إلى الكتابات التي خلفها الأقدمون قبل عهد التوراة، هو أن الذي اعتمدها وأوردها في كتابه آنف الذكر هو من أصل يهودي، وقد تحول عن الديانة اليهودية إلى الإسلام، بعدما اطلع عليه، في سياق أبحاثه العلمية المتواصلة، من حقائق دامغة تدحض مزاعمها، والنتيجة المقنعة التي تخلص إليها أبحاث المؤرخين وعلماء الآثار في العصر الراهن، هي أنه ليس لليهود أي حق أو مشروعية في المطالبة بإقامة وطن لهم في أرض فلسطين التي هي ملك سكانها الأصليين، العرب وحدهم.

وقد أقرَّ المؤتمر اليهودي العام الذي عقد في باريس عام ١٨٠٧ بهذه الحقيقة عندما أعلن على الملأ أنه ليس لليهود مثل هذا الحق، وأن عليهم أن يعزفوا عن التفكير بالعودة إلى أرض فلسطين وعن إقامة دولة لهم فيها.

وإن هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية ذاته، حذر أعضاء المؤتمر اليهودي من مغبة الهجرة إلى فلسطين، لما في ذلك من خطر عليهم وعلى سكانها الأصليين، ونصحهم بتجنب الهجرة إلى هذا البلد وباختيار بلد غيره.

وقد تحقق هذا الخطر بالفعل نتيجة عدم الأخذ بهذا النصح السديد، وبعد عزوف صاحبه عنه، بسبب تأثره بأفكار وتحريض غيره من الصهاينة وغير اليهود؛ فسيل الدماء الذي أخذ ينهمر بغزارة من أجساد الفلسطينيين والإسرائيليين معاً، بدأ منذ تدفق أفواج المهاجرين اليهود إلى فلسطين في

ظل احتلال البريطانيين لها بأعقاب الحرب العالمية الأولى، وهو لن ينقطع ما دام الصراع دائراً ومستمراً بين الطرفين على ملكية أرض يجمع المؤرخون المنصفون على أنها حق خالص للعرب لا مرية فيه ولا ريب.

وما من شك في أن قدوم الإسرائيليين للحلول في هذه الأرض العربية، بعد انتزاعها من أيدي أصحابها الشرعيين، أصبح مصدر بلاء وشقاء بلغا من الشدة والفظاعة حداً لا يوصف، حل بالفلسطينيين العرب ثم بإخوتهم اللبنانيين وذلك تحت سمع وأبصار دول العالم قاطبة والهيئات والمنظمات الدولية التي تنهض شرائعها على حماية استقلال الدول، ونصرة حق شعوبها في تقرير مصيرهم، وتأييد حق الأفراد بالعيش بحرية وأمن وسلام في أوطانهم.

وقد امتد الخطر الناتج من اغتصاب أرض فلسطين وقيام دولة إسرائيل عليه ليهدد أمن واستقرار دول المنطقة برمتها، ويزرع الدمار والخراب في ربوعها، وليلحق الأذى والشقاء بسكانها، ويهددهم بالمحق والفناء، إن هم استكانوا أمام هذا الخطر الماحق الذي حل بأرض فلسطين أولاً، فشتت أهلها، وشرد أبناءها، ثم سرى إلى لبنان، فنكد عيش سكانه، وقلب حياتهم الرغيدة إلى جحيم لا يطاق، وأكره مئات الألوف منهم على النزوح إلى المهاجر البعيدة والنائية.

وما الحرب الأهلية الدائرة رحاها على أرض هذا البلد العربي العريق، مع ما جرته على اللبنانيين جميعاً، على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم وانتماءاتهم الروحية والحزبية والسياسية، من ويلات، إلا انعكاس مباشر لوجود الدولة الإسرائيلية الدخيلة على المنطقة، والتي لا يكف قادة عصاباتها عن التهديد بالعودة لاجتياح أراضي هذا القطر المكافح تنفيذاً لأطماع الصهيونية العدوانية الرامية إلى الاستيلاء على البلدان العربية الواحد بعد الآخر.

وكذلك لا يحتاج المرء إلى كثير من التفكير والإمعان لإدراك حقيقة راسخة تؤكدها الحرب الطاحنة الشاجرة بين كل من العراق وإيران، وهما بلدان مسلمان متجاوران يتمتعان بقدرات هائلة وطاقات وافرة، لو جرى حشدها معاً لخوض معركة تحرير فلسطين، لكفلت وحدها وضع حدّ لهذه الأسطورة الفارغة التي تحاول أجهزة الإعلام الغربية والإسرائيلية إيهام الرأي العام العالمي بها، وهي أن إسرائيل واحدة للديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط، وأنها فوق ذلك قلعة منيعة لا تقهر، والحقيقة المرة تنبع من كون إسرائيل هي المستفيدة الأولى من اندلاع هذه الحرب المؤسفة التي لا مصلحة لأي من شعبي العراق وإيران فيها، هذا إن لم تكن أصابع إسرائيل الخفية، ودسائسها الخبيثة، هي التي أثارت شرارة نار تلك الحرب المدمرة التي زرعت الخراب والدمار في مرافق البلدين الشقيقين وتسببت في إزهاق أرواح مئات الألوف من أبنائهما البررة، بالإضافة إلى ما تكبده الشعبان من خسائر مادية جسيمة تقدر بمئات المليارات من الدنانير، عدا ما أحدثته هذه الحرب الهوجاء من انعكاسات سلبية ونتائج سيئة سممت أجواء دول الخليج العربي برمتها، وأثرت على أمنها وسلامتها وعلى نموها الاقتصادي وازدهارها.

إن المتتبع لنشوء وتطور الحركة الصهيونية، ولقيام دولة إسرائيل على حساب عرب فلسطين والسبب في مأساتهم الرهيبة، لابد له أن يلحظ بوضوح دور وأثر الدول الاستعمارية في خلق هذه المشكلة المعقدة.

إن الاستعماريين الغربيين هم الذين سبقوا إلى التفكير جدياً بتوطين اليهود في أرض فلسطين قبل الإعلان عن تأسيس الحركة الصهيونية بزمن طويل.

وكشفت الكاتبة الأمريكية "ريجينا الشريف" في كتابها (الصهيونية غير اليهودية) - المنشورة ترجمته ضمن سلسلة "عالم المعرفة" في الكويت -

النقاب عن أن الإمبراطور الفرنسي الشهير نابليون كان أول رجل دولة يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين قبل وعد بلفور بـ (١١٨) سنة، بل إن وايزمن وصف نابليون بأنه أول الصهيونيين الحديثين غير اليهود.

لقد اختار القائد الفرنسي نابليون الوقت الذي كان فيه في سورية ضمن حملته الكبرى على الشرق، للاعتراف بحقوق اليهود، وفي ربيع ١٧٩٩ أصدر بياناً طلب فيه من يهود إفريقية وآسية أن يقاتلوا تحت لوائه لإعادة إنشاء مملكة القدس القديمة".

وعندما اندلعت نار الفتنة الطائفية في لبنان وسورية خلال الفترة الزمنية الطويلة الممتدة بين عام ١٨٢٥ وعام ١٨٦٠، بفعل الدسائس البريطانية والفرنسية، وبعد المجزرة الرهيبة التي وقعت عام ١٨٦٠ في كل من البلدين الشقيقين، وراح ضحيتها عشرات الألوف من الضحايا الأبرياء، سارعت الصحف الفرنسية الصادرة في باريس، تحت ستار واهٍ من الغيرة الكاذبة والحرص المصطنع على أرواح السكان المسيحيين، سارعت للمناداة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، لا حباً باليهود أنفسهم، بل لتكون الدولة المقترحة مصدر إرباك وإنهاك لسكان المنطقة من العرب، وعامل كسرٍ لشوكة الإسلام والمسلمين.

وما من أحد يستطيع إنكار الدور السيئ الذي لعبته السياسة البريطانية الاستعمارية في تحقيق حلم اليهود القديم بإقامة وطن قومي وكيان سياسي لهم في فلسطين. فمن وعد بلفور المشؤوم الصادر في ٢/ ١١/ ١٩١٧، إلى الاحتلال العسكري لأرض فلسطين في ٩/ ١٢/ ١٩١٧، إلى تعيين الصهيوني هربرت صموئيل أولَ مندوب سام للحكومة البريطانية على الدولة الفلسطينية المنبثقة عن مؤامرة سايكس - بيكو، وصكِّ الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، إلى فتح باب الهجرة إلى الأراضي المقدسة إلى تمليك اليهود الدخلاء الأجانب الأرض العربية على أوسع نطاق، إلى

تجريد العرب من أسلحتهم كافة، حتى الخفيفة منها، وتزويد اليهود بالأسلحة الحربية على اختلاف أنواعها، والتغاضي عن جرائم العصابات الصهيونية بحق العرب الآمنين والجنود الإنكليز الموجودين في فلسطين على حد سواء، والهدفُ من وراء كل ذلك التآمر المفضوح، زرع هذه النبتة الخبيثة في الأرض العربية الطيبة، وتحقيق مرامي الصهيونية من جهة، وخدمة المصالح الاستعمارية من جهة ثانية.

وإذا كانت الصهيونية بحق هي أم إسرائيل الرؤوم، فإن الاستعمار الغربي هو أبوها غير الشرعي، وهيئات الأمم المتحدة هي الحاضنة المتبرعة التي باركت ولادتها وتلقفتها في أحضانها برعاية خاصة وعناية فائقة، وضمتها إلى صدرها بحنان منقطع النظير، لترعى وجودها وتحافظ على كيانها وبقائها، على الرغم من كل ما تبديه هذه اللقيطة المدللة من سوء خلق وعربدة وشقاوة، وما تسببه في المحيط الذي زرعت فيه من توتر واضطراب، وما تثيره في العالم من متاعب خطيرة وتكديرٍ دائم للسلام.

إن إسرائيل، هي في حقيقتها، وكما أوضحنا، مشروع استعماري حمله إلى المنطقة العربية المد الصليبي الحاقد على العروبة والإسلام.

وكما انحسر هذا المدُّ في الماضي، وتحطمت معه جميع الغزوات والمشاريع الاستعمارية السابقة، ستتحطم مشاريعه الجديدة، وأخطرها مشروع قيام دولة إسرائيل، على صخرة الكفاح العربي، إذا ما حزم العرب أخيراً أمرهم، وساروا على النهج القويم الذي سلكه آباؤهم وأجدادهم في مجابهة الحملات الصليبية السابقة.



طريق الخلاص

إن ما يقع اليوم، على أرض الوطن العربي وفي أرجاء العالم الإسلامي، من حروب أهلية وفتن طائفية، واقتتال وتناحر بين الإخوة، وإن ما تتعرض له دول هذه المنطقة من تسلط خارجي ومن تدخل أجنبي في شؤونها الداخلية، مع ما يعانيه أبناء هذه الدول من خرق سافر لحقوق الإنسان، وللحريات العامة والفردية، ومن ممارسات قمعية رهيبة، ومن أزمات سياسية واقتصادية متلاحقة، إن هو إلا تنفيذ بارع ودقيق للمخططات الجهنمية المعدة في مطابخ السياسة الاستعمارية، والتي ورثتها وتبنتها الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة الاستعمار الغربي في العصر الحاضر، والحليفة الكبرى لإسرائيل، وهي التي أسهمت في خلقها وضمنت لها البقاء والاستمرار بما تحيطها به من دعم قوي، وما تغدقه عليها من مساعدات مالية واقتصادية وعسكرية وفيرة.

إن العرب والمسلمين يملكون من القدرات الهائلة ما يساعدهم على النهوض من عثارهم، فيما لو نبذوا أسباب الفرقة والتناحر، وسلكوا سبيل الاتحاد والتضامن، وعبؤوا صفوفهم تعبئة شاملة، ووحدوا كلماتهم، وحشدوا طاقاتهم، لخوض معركة الانعتاق من براثن العبودية، والتحرر التام من الأغلال والقيود البغيضة التي تكبلهم بها السياسات الاستعمارية وألاعيب الصهيونية الماكرة ومكائدها الغادرة اللئيمة. ومثل تلك النهضة التي تحققت في الماضي غير البعيد، بعد أن كان العرب يعيشون على

هامش التاريخ الحضاري، يمكن أن تتحقق من جديد، ولا سيما أن الأسباب والوسائل متوافرة لهم في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى.

إن الطريق أمامهم مرسومة ومعبدة، وما عليهم إلا أن يعتزموا السير عليها، إن هم أرادوا العيش أحراراً في بلادهم، أعزة في ديارهم؛ ولن يظفروا بهذه الحرية، ولن تتحقق لهم العزة والكرامة، إلا إذا ثابوا إلى رشدهم، وسلكوا السبيل الأجدى التي تساعد على الخلاص مما هم فيه من تشتت وضياع، ومن انحطاط وهوان، بسبب ما يعانونه من تخلف داخلي وما يتعرضون له من تسلط خارجي.

ولا بد لكل قوم تتكالب عليهم القوى الخارجية المتربصة بهم، وعوامل النخر الداخلية الموهنة لقواهم، من الرجوع إلى التاريخ لاستخلاص الدروس والعبر التي تساعدهم على الاستدلال على طريق الخلاص، ونظرةٌ عاجلة على الماضي القريب يمكن أن تساعد على تحقيق مثل هذا الغرض.

ففي كل مرة تعرضت فيها المنطقة العربية للعدوان الخارجي، كان الجهاد تحت راية الإسلام هو السبيل الأضمن لطرد الغزاة. فالإسلام يشكل اللحمة القوية الفعالة التي تساعد على جمع الشمل وتوحيد الصفوف؛ والاعتصام بحبل الله، أي الالتزام بشرعة القرآن، الإسلام السبيل لنبذ الفرقة وتأليف القلوب. ولنا في المنهج القويم الذي اتبعه القائدان الفذان عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ومن بعدهما خلفهما البطل صلاح الدين الأيوبي خير دليل على صحة ما نقول. وإن نجاح هؤلاء القادة العظام في صد الحملات الصليبية وطرد الفرنجة الغزاة من أرض العروبة والإسلام وتطهيرها من رجس الاحتلال الأجنبي البغيض، لم يتأت عن براعتهم وحنكتهم العسكرية المشهود لها فحسب، وإنما كان ناتجاً عن التزامهم بمبادئ العقيدة الإسلامية، وعن سعيهم المخلص

والحثيث لإزالة أسباب الفرقة والتناحر والتجزئة بين أبناء المنطقة، وتعبئتهم الحشود ورصهمُ الصفوف تحت راية الإسلام الذي كان حافزهم الأقوى لمجابهة كيد الأعداء الغاصبين.

لقد بقيت الدول الإسلامية قوية الجانب، تقارع الخطوب، وتدفع الأخطار، ما بقي المسلمون ملتزمين بإخلاص بمبادئ عقيدتهم الدينية التي كانت مصدر قوتهم وسبب انتصارهم وسبيل تقدمهم، ولم يتقهقروا ولم يتخلفوا إلا عندما فترت حماستهم لدينهم، وتسربت إلى نفوسهم وأذهانهم سموم الشعوبية ودسائسها وأفكارها. ومن صحائف التاريخ العربي المجيد الذي أشرق بنور الإسلام في الأمس غير البعيد، ومن واقع حال العرب المزري اليوم، وتقهقر أحوال المسلمين واستذلالهم في عقر ديارهم بفعل النفوذ الأجنبي والسيطرة الاستعمارية بشكليها القديم والحديث، يمكن من كل ذلك تشخيص العلة التي تفتك في أوصالهم وتهد كيانهم، ومن ثم وصفُ الدواء الناجع للتخلص من آثارها الممضة وأعراضها المهينة.

إن العقيدة الإسلامية، كانت منذ بزوغ فجر الإسلام، مصدر القوة والنجاح والبلسم الشافي الذي وضع حداً لجميع ما كان ينتاب عرب الجاهلية من أمراض وأسقام، فوحَّدهم من بعد فرقة وانقسام، وقوَّى شوكتهم من بعد ضعف واستسلام، وأعز شأنهم من بعد ذلة وهوان.

وفي الحقيقة إن في هذه العقيدة هدى وشفاء لا لعرب الجاهلية أو عرب اليوم وحدهم. من أدوائهم وعللهم، بل للبشرية جمعاء مما يعتريها من تعثر وضلال، وللعالم كله مما يتخبط به من فوضى واضطراب وعدم استقرار.

وها هو ذا الناقد الإيرلندي الشهير جورج برناردشو يشهد بأن

"للإسلام طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة، وأنه صالح لكل العصور". وقد أتت هذه الشهادة على لسانه بعد إحاطته "بالدور العظيم الذي قام به محمد ﷺ لإنقاذ البشرية"، ثم عبَّر هذا المفكر الجريء بصراحته المعهودة عن اعتقاده بأنه "لو أتيح لرجل مثل الرسول أن يحكم عالم اليوم لنجح في حل مشكلاته بما يكفل السلام والسعادة لبني البشر".

ولا شك في أن شخصية الرسول الفذة وسجاياه الإنسانية السامية هي التي أهلته للقيام بأعظم دور قيادي في تاريخ البشر، وجعلته مثلاً أعلى يحتذى به. والخلفاء الراشدون الذين التزموا بنهج القرآن العظيم، وأخذوا بسنة الرسول الكريم، واقتدوا به في إدارة شؤون الأمة والاتجاه بها إلى مراقي العزة والمجد، قدموا بدورهم نماذج رائعة للقيادة الناجحة. وستبقى سيرة الرسول ﷺ القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لكل من يريد التصدي لحل مشكلات عالم اليوم، شريطة الالتزام بالنهج المحدد في القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم، وفي ذلك خلاص للإنسانية من كل ما تعانيه، في هذا العصر المضطرب، من أعراض الفوضى والتخبط، ومن ويلات الظلم السياسي والاجتماعي.

وكل من يحاول تجاهل هذه المعاناة وأسبابها، شأنه شأن النعامة تدفن رأسها في الرمال، تفادياً للخطر الماحق يهدد حياتها ووجودها. إن العالم كله يعاني اليوم من أزمة طاحنة تهز كيانه، وتعرض أمنه وسلامته للخطر الشديد، بسبب عجز النظام العالمي الجديد عن معالجة مشاكل الشعوب بروح الحق والعدل، وقد باتت الأسرة الدولية ملزمة بإعادة النظر في هذا النظام الفاشل الذي خلفته الحرب العالمية الثانية، الذي جعل الشعوب تعيش في ظله تحت كابوس ثقيل من التسلط والتآمر، وفي جو رهيب من الخوف والرعب، وفي دوامة الخطر من الأزمات الاقتصادية الخانقة التي تأخذ بخناق كثيرين من بني البشر، فتدع عشرات الملايين منهم معرضين

للفقر الشديد وللموت جوعاً وعطشاً ومرضاً، دون السعي جدياً لوضع حد حاسم لمعاناتهم الشديدة ومآسيهم العديدة الماثلة أمام الرأي العام العالمي، تنقل صورها المرعبة والمخزية مختلف أجهزة الإعلام في العالم الذي بات في حاجة ماسة إلى إيجاد الحلول الناجعة لمشكلاته الحادة والمستعصية التي لا يمكن إنقاذ البشر من ويلاتها إلا بالتخلص من أسبابها.

ويأتي على رأس هذه الأسباب تسلط القوى الاستعمارية على الدول المستضعفة، وممارستها التعصب والتمييز العنصري بأبشع أشكاله، وإشعالها نار الحروب الأهلية والفتن الداخلية في أخطر مناطق العالم حساسية.

إن هذه الصورة المفزعة لعالم اليوم جعلت بعض كبار المفكرين المعاصرين يتجهون بأنظارهم نحو الإسلام ليجدوا فيه نظام المستقبل، لما يحمله في مبادئه المثلى من حلول عادلة للمشاكل المستعصية التي تتخبط بها البشرية في هذا العصر المضطرب الذي طغت فيه المادة على الروح طغياناً رهيباً قلب حياة كثيرين من بني البشر إلى بؤس وشقاء.

فعلى الرغم من الشعارات البراقة التي تحفل بها المواثيق العالمية الدولية للحد من تسلط الأقوياء على الضعفاء، ولحماية حقوق الإنسان، فإن الظلم الذي يحيق بأغلبية سكان الأرض قد بلغ من الفداحة مبلغاً بات يهدد بانفجار كبير، قد يكون أشد خطراً على البشر من خطر الأسلحة النووية.

إن ملايين اللاجئين يعيشون تحت الخيام ويعانون من الجور والظلم حداً يخل بجميع القيم الإنسانية. وقد وصف وزير الدولة البريطاني دافيد ميللر لدى زيارته بعض مخيمات اللاجئين المنتشرة في فلسطين ذاتها حالة

البؤس التي يحياها سكان المخيمات بأنها جرح متقيح لن يقوم معه سلام.

إن ملايين عديدة من سكان آسية وإفريقية وأمريكة الجنوبية يتضورون جوعاً ويتجرعون كؤوس الموت البطيء من جراء سوء التغذية بسبب فساد الأوضاع السياسية والاقتصادية التي تسود أرجاء العالم، والتي أصبحت مصدراً لتراكم ثروات الأغنياء وشح مصادر دخل الفقراء، وهذا ما تسعى إليه الصهيونية جاهدة لتحقيق حلمها بالسيطرة على العالم.

إن هؤلاء اللاجئين وأولئك الجياع لا يهتمون كثيراً بأن يسود الوفاق بين الأقوياء وبأن تنزع الصواريخ النووية، أياً كان مداها، من قواعدها المنصوبة في أنحاء أوربة وأمريكة بقدر ما يهتمون بإيجاد حلول ناجعة لأوضاعهم غير الإنسانية، ولمآسيهم المفجعة الناجمة عن الظلم الكبير الذي يحيق بهم بسبب عجز النظام العالمي الذي خلفته الحرب العالمية الثانية عن معالجة الأزمات الخطيرة التي يتخبط بها عالم ما بعد الحرب.

إن إزالة هذا الظلم لن تكون إلا باتباع نهج سياسي واقتصادي عالمي جديد يعيد للإنسان كرامته، ويحمي حقوقه بالحرية والعيش الكريم حماية فعلية، لا بتسطير هذه الحقوق على الورق في المواثيق والأنظمة والاتفاقيات، وإنما باحترام هذه الحقوق احتراماً صادقاً، وبتحقيق المساواة التامة بين جميع بني الإنسان تحقيقاً عملياً، لا خداع فيه ولا نفاق، ولا احتكار ولا استئثار.



بناة المستقبل

سيحلو لبعض أعداء العروبة والإسلام أن يجأروا بالنقمة والتهجم على مؤلف هذا الكتاب، وأن يعزوا إلى التحيز القومي أو التشدد الديني المنطق الذي أخذ به لدى الحديث عن دور العرب والمسلمين في بناء مجدهم الماضي، وعما يمكن أن يقوموا به من أدوار في إشادة المستقبل لخدمة البشرية والتغلب على أزماتها، وفي إرساء قواعد السلام في العالم على أسس صحيحة راسخة، إذا ما تخلصوا من ربقة أعدائهم، وتمكنوا من النهوض مجدداً، بعد تقهقرهم الذريع وانحطاط أحوالهم إلى درجة جعلت المناوئين لهم والمتحاملين عليهم يصفونهم بالهمجية والتخلف، ويصنفونهم في أسفل درجات سلم الرقي والتقدم.

ولكن استعراض آراء بعض المفكرين الأجانب المنصفين، الغربيين منهم والشرقيين على حد سواء، وهم ليسوا في الأصل من العرب ولا من المسلمين الحنفاء، يقطع الطريق على هؤلاء الناقمين، ويقيم الحجة على انتفاء أي أثر للتعصب القومي أو الديني في كل ما ورد بين دفتي هذا الكتاب من آراء وأفكار، أملاها الحرص على مصلحة الأمة العربية التي يعتز المؤلف بالانتماء إليها.

فكبير المستشرقين الغربيين، العالم لويس ماسينيون، الذي بدأ حرفة الاستشراق في مطلع القرن العشرين تحدوه إلى ذلك أهداف استعمارية سافرة، لم يلبث بعد حقبة من الزمن، وبسبب تأثره العميق بمكنونات التراث العربي التليد، وبروعة الحضارة الإسلامية المجيدة، أن انقلب إلى

نصير للعرب وداعية متحمس للغتهم الراقية. فها هو يخاطب أبناء الأمة العربية بكلمة تمهيدية وضعها بين يدي كتاب (المعجزة العربية)، لمؤلفه المؤرخ الفرنسي ماكس فانتاجو، ومما جاء فيها:

"من حق العرب علينا نحن ضيوفهم والوافدين عليهم من مثلي أنا والسيد فانتاجو، أن نرفع الصوت عالياً، طالبين إليهم المقاومة: أن يقاوموا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتقاليدهم وإبائهم، والاستسلام أمام القوة الاستعمارية ورؤوس المال المصرفية التي تطلب إليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة، حضارة الإنسان الآلي التي لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الإلهية، وتصبو إلى إخضاع العالم لنظامية ثقافية أمريكية بلهاء. إن هذا الإنتاج الصناعي المغشوش يسقط وشيكاً.

ويلي المستشرق ماسينيون، الذي يمثل، بفكره النير وثقافته الواسعة، أقصى اليمين، مفكر فرنسي آخر، من أقصى اليسار، هو روجيه غارودي، الذي كان من أبرز نشطاء الشيوعيين في العالم، واحتل في وقت من الأوقات عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي، ثم اهتدى فيما بعد للدين الإسلامي؛ إنه يعكس في كتاباته ومؤلفاته، التي وضعها بعد هذا الانعطاف الكبير في حياته الفكرية، مزايا العقيدة الجديدة التي اعتنقها عن قناعة ويقين مع إشارته بحماس إلى ما يعد به الإسلام في المستقبل لخير البشر والعالم أجمع.

وروى لي صديق سافر منذ سنوات قريبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لزيارة شقيق له مغترب فيها، وتعرف بواسطته على ضابط أمريكي كبير محال إلى المعاش، أن هذا الضابط المتقاعد اعتنق الإسلام عن قناعة تامة، بعد أن تسنى له الاطلاع على مبادئ هذا الدين القيم، لدى وجوده في منطقة الشرق الأوسط في أثناء أدائه الخدمة العسكرية،

وأنه أصبح داعية للإسلام وبشيراً بين بني قومه الذين اهتدى على يديه مئات منهم، وأصبحوا يؤدون معه الشعائر الإسلامية بانتظام؛ وهو متفائل بمستقبل الأيام، ويؤكد لعارفيه وسامعيه أن الإسلام سيصبح على مدى الزمن دين الأكثرية من الأمريكيين، لأنهم سيجدون فيه الدين الحق الذي يحقق السعادة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وذكر لي صديق آخر زار بلاد الاتحاد السوفييتي بدعوة من بعض الأوساط الفنية في موسكو تقديراً لفنه وإبداعه، أن مضيفيه أرفقوه بشاب روسي عضو في الحزب الشيوعي السوفييتي ويتقن اللغة العربية التي تعمق في دراستها في معاهد اللغات في بلده. وقد رافقه طوال مدة زيارته التي استغرقت شهراً كاملاً، كان الفنان السوري يواظب خلالها على صلواته الخمس ويقرأ القرآن ساعات فراغه إبان وجوده في الأراضي السوفييتية؛ وقد حرص الشاب الروسي على التعرف من الضيف الروسي على حقيقة الدين الإسلامي وخصائصه ومراميه، ثم ما لبث أن اهتدى بدوره واعتنق الإسلام، وظل يواصل صديقه السوري برسائله التي تشير إلى مكوثه على العهد، مع التأكيد أن مبادئ العقيدة الإسلامية قد سدت الفراغ الكبير الذي كان يشعر به في قرارة نفسه لفقدان أي أثر للروح في تكوينه الفكري والثقافي السابق.

ومن جملة ما كان يردده في خطابه إلى الرجل المؤمن الذي أرشده إلى سواء الصراط، أن الإسلام سيصبح دين المستقبل في العالم أجمع، إذا ما تسنى له، من بين المسلمين، دعاة أقوياء وصادقون يعرفون كيف يخاطبون عقول الناس من أبناء الشعوب الأخرى.

أما الكاتب السوفييتي المنشق ألكسندر سولجينستين الذي التجأ إلى أوربة ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات بعد خلافه مع حكام بلد الشيوعية الأم بسبب أفكاره الحرة والجريئة، فقد راح بعد وصوله إلى

بلاد العم سام، يحاضر في جامعاتها ومنتدياتها العامة، منتقداً كلاً من النظامين الرأسمالي والشيوعي، موضحاً مثالبهما، ومشيراً في آن واحد إلى ضرورة الالتفات إلى حضارات الشرق، ومن بينها الحضارة الإسلامية، التي قد يجد فيها عالم اليوم مخرجاً من أزماته الحادة والمستعصية، وحلولاً عملية لمشاكله المعقدة والناتجة بمعظمها عن طغيان المادة على حساب الروح.

مثل هذه الصور الزاهية والمتفائلة التي تعكسها عن مستقبل العروبة والإسلام أفكار بعض علماء الغرب والشرق على حد سواء، ربما تعزى إلى أن أصحابها ينظرون إلى الإسلام من خلال نظارات وردية فاتحة تجعل الرؤية لديهم واضحة لا يشوبها غبش أو غموض أو كره.

ولكن كيلا يتهم المتفائلون من أبناء قومنا وديننا بالغرور والانبهار بمثل هذه الصور المضيئة تعكسها آراء مفكرين أجانب قد يتهمون هم أيضاً بالتحيز للعروبة والإسلام، يمكن رفد هذا البحث بآراء أولئك الذين ينظرون إلى الأمور بمنظار أسود قاتم، لنستبين من خلال نظراتهم السلبية، حقيقة الصورة التي يتوقعونها لمستقبل أمتنا وديننا مع ما يرافق عرضهم لهذه الصورة من تحذير لبني أقوامهم من خطر يهدد بإنهاء الدور القيادي لدول الغرب، أو بكلمة أوضح، فزعهم ورعبهم من العالم العربي، وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة.

ويمكن الاكتفاء هنا بنماذج من تلك الآراء المتعددة والمتطابقة، مقتطفة من رسالة أعدها جودت سعيد، عنوانها (لماذا هذا الرعب كله من الإسلام؟)، للاستدلال على ما يمكن أن يقوم به العرب والمسلمون في مستقبل البشرية، إن هم استعادوا زمام أمورهم بأيديهم، وعادوا إلى ممارسة دورهم الإيجابي البناء في خدمة الحضارة الإنسانية.

ومما قاله لورنس براون في هذا الصدد:

"ولكن الخطر الحقيقي كامن في المسلمين، وفي قدرتهم على التوسع والإخضاع وفي الحيوية المدهشة العنيفة التي يمتلكونها، ألا إنهم السد الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي".

ومن حديث للديكتاتور البرتغالي سالازار، وهو المختص بعلم الاقتصاد، لبعض الصحفيين، قوله:

"إن الخطر الحقيقي إنما هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون من تغيير في نظام العمل، فقيل له: إنهم في شغل عن أن يفكروا في هذا بخلافاتهم ونزاعاتهم، فقال: إني أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا".

ويقول مرماديوك باكثول:

"إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في الدنيا الآن بالسرعة نفسها التي نشروها بها سابقاً إذا رجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول؛ لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع أن يقف أمام حضارتهم".

ويقول البرمثادور في حديث عن المسلمين:

"إن هذا المسلم الذكي الشجاع قد ترك لنا حيث حل آثار علمه وفنه، آثار مجده وفخاره.

إن هذا المسلم الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين قد استيقظ وأخذ ينادي ها أنذا لم أمت، إني أعود إلى الحياة، لا لأكون أداة طيعة أو ثقلاً من البشر تسيرها العواصم الكبرى".

ثم يقول:

"ومن يدري؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة

بالمسلمين فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية بالوقت المناسب أو الزمن الموقوت.

لست أدعي النبوءة، ولكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقفها".

إن أكثر هذه الآراء يعكس الشعور الذي يمتلك أولئك الفرنجة الذين يرون في الإسلام الخطر الشديد الذي يهدد بزوال سيطرتهم وتسلطهم على دول العالم ويضع حداً لاستئثارهم بقيادته. ويا لها من قيادة باغية تنفث سمومها وتنشر شرورها وتهدد العالم بأسره بأوخم العواقب.

وقد أتى رئيس ندوة العلماء المسلمين في الهند أبو الحسن علي الحسني الندوي على أدق وصف لحالة العالم في ظل قيادة الغرب له بما أورده في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) (الطبعة التاسعة - ص ٢٩٥) قائلاً:

"لقد وقف العالم - نتيجة لقيادة الغرب - على فوهة بركان مستعدٍّ للانفجار، أو على شفا جرف هار، ولا صلاح للعالم، ولا بقاء للإنسانية، ما دام الغرب في وضعه الحاضر، هو المهيمن على الحياة كلها، وهو مصدر التوجيه والإرادة في جميع القارات فضلاً عن البلاد والحكومات، كالدُّمَّلِ الممتد في جسم الإنسانية السليم، وهو مرد كل قلق، وكل فوضى، وكل ثورة وانقلاب في أقصى الشرق، وفي أبعد أطراف العالم الإسلامي لا تثمر مع سيطرته جهود إصلاحية، ولا تبقى رغم إرادته ومصالحه حكومات صالحة ولا نظام راشد، ولا أمل في السعادة إلا في تحول القيادة والقوة من الغرب المادي الأناني الذي لم يعد قادراً على إسعاد البشرية، ولا رغبة له فيه إلى من يحمل للعالم والإنسانية روحاً جديدة، وتصميماً جديداً".

وللتعرف على حقيقة الدور القيادي الذي يمكن أن يقوم به العرب والمسلمون إن هم نفضوا عن كواهلهم أسباب الكسل والتواكل والتراخي، واستعادوا ناصية القيادة التي أفلت زمامها من أيديهم بسبب انحطاط أحوالهم، يمكن الرجوع إلى هذا الكتاب القيم الذي وضعه هذا المفكر الهندي، والذي يصلح لأن يكون دليلاً لسلوك طريق النهضة الإسلامية من جديد، لصالح البشرية كلها".

عملاق مقيد

صرح أحد كبار الدبلوماسيين الفرنسيين، عام ١٩٥٢، محذراً الغربيين من الخطر الحقيقي الذي يهددهم تهديداً مباشراً، وهو الخطر الإسلامي، ومن جملة ما قاله:

"فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي؛ فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب؛ أي دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية.

وفرصتهم في تحقيق أحلامهم هي في اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب، فإذا صح لهم علمهم، وإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الغني وانتشروا في الأرض يزيلون عنها قواعد الروح الغربية ويقذفون رسالتها إلى متاحف التاريخ. وقد حاولنا خلال حكمنا الطويل في الجزائر أن نتغلب على الشخصية التاريخية لشعب هذا البلد، فلم نأل جهداً في صوغ شخصية غربية له فكان الإخفاق الكامل نتاج مجهودنا الضخم الكبير.

إن العالم الإسلامي يقعد اليوم فوق ثروة خيالية من الذهب الأسود والمواد الأولية الضرورية للصناعة الحديثة، ولكنه في حاجة إلى

الاستقلال في استغلال هذه الإمكانات الضخمة الكامنة في بطون سهوله وجباله وصحاريه.

إنه في عين التاريخ عملاق مقيد، عملاق لم يكتشف نفسه بعد اكتشافاً تاماً، فهو حائر وهو قلق كاره لماضيه في عصر الانحطاط، راغب رغبة يخالطها شيء من الكسل أو بعبارة أخرى من الفوضى في مستقبل أحسن وحرية أوفر.

فَلْنُعْطِ هذا العالم ما يشاء، ولنقوِّ في نفسه عدم الرغبة في الإنتاج الصناعي والفني، فإذا عجزنا عن تحقيق هذه اللحظة وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه عن مجاراة الغرب في الإنتاج فقد بؤنا بالإخفاق الذريع، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة، خطراً داهماً يتعرض به التراث الحضاري الغربي لكارثة تاريخية ينتهي بها الغرب، وتنتهي معها وظيفته الحضارية.

ليس العرب في واقع الأمر، بحاجة للاطلاع على مثل هذه الصور والآراء، تصدر من أفواه الغربيين، ليدركوا حقيقة ما يتمتعون به من إمكانات هائلة، وما تزخر به بلادهم من ثروات ضخمة، تساعدهم على الاستقلال في استغلالها لو حزموا أمرهم، وتخلصوا من القيود التي تكبلهم، وتحول دون نهضتهم. وما عليهم، كي تتحقق هذه النهضة، إلا السير في الدرب القويم، الدرب الذي تتوحد فيه صفوفهم، وتذوب خلافاتهم، وتسود إرادتهم، وتعلو كلمتهم التي تؤيدها قوتهم، وهي القوة التي تنبع من إيمانهم بعقيدتهم المثلى التي لابد من العودة للالتزام بمبادئها، والتمسك بها، إن هم أرادوا بناء غد مشرق.

ويصف الدكتور عبد المنعم الخفاجي، هذا الغد، في مقالة له عنوانها (الإسلام والحضارات المعاصرة) نشرتها مجلة الثقافة الأسبوعية في العدد رقم ٢٦ تاريخ ٢٥/ ٦/ ١٩٧٧، بأنه:

"لا يمكن أن يكون غد آخر مقطوع الصلة بماضينا، لأن ذلك محال يأباه ديننا وتاريخنا وتراثنا وعقلنا، ويأباه أيضاً منطق الأشياء، وإذا تصورنا غداً آخر مقطوع الصلة بالماضي، فإن من المحال الوصول عن طريقه إلى أهدافنا، وإلى وحدة إسلامية ووطنية كاملة، ومن المحال كذلك في ظله تلافي الصراع الطبقي والحروب الاجتماعية بين طبقات المجتمع، وقد فشلت ولا تزال تسير في طريق الفشل كل المحاولات لبناء غد للإسلام يرتكز على أصول غير إسلامية من الوثنية أو العلمانية أو المادية الإلحادية أو غيرها من المذاهب الاقتصادية والسياسية السائدة اليوم.

ومحور دعوات أئمة الإسلام ومفكريه في العصر الحديث هو عودة الفكر العربي الإسلامي الذي يستمد مقوماته من الإسلام والقرآن منطلقاً من الرسالة التي أذن لها محمد - صلوات الله وسلامه عليه - في شعاب مكة وبلغها الناس كافة".

إن عالم اليوم هو بلا ريب في أزمة خطيرة، يزيد من استفحالها عجز النظام العالمي الحالي عن إيجاد الحلول لها؛ ولن ينجو العالم من ويلات هذه الأزمة، إلا إذا أوجد الحل الملائم، ويكمن هذا الحل في الدين الإسلامي الذي تنزل من السماء لصالح البشر.

إن طموح الحركة الصهيونية لحكم العالم، واستشراء مفاسدها وسعيها الدؤوب لتخريب أوضاع مختلف الدول والمجتمعات في القارات الخمس، قد زاد من تعقيد الأزمة العمالية الراهنة ووضع البشرية أمام أخطار مفزعة من أعراضها الحادة الحالية، إرهاق دول العالم الثالث بالديون الخارجية، والتسبب في خلق المجاعات بين شعوبه، ضمن مخطط رهيب، الهدف النهائي منه إخضاع البشرية لحكم الصهاينة.

وبينما تقدم إسرائيل نماذج حية لملوكها الذين تحلم بتتويجهم لتبوء عرش العالم، ممثلين بأشخاص من طبقة مجرمي الحرب، أمثال بيغن، وشامير، وشارون، الذين أثبتوا عجزهم حتى عن إدارة شؤون الضفة الغربية وغزة اللتين لا يزيد عدد سكانهما عن مليون نسمة، فإن العالم الحديث بأسره وعدد سكانه يتجاوز الخمسة مليارات إنسان، أضحى بحاجة لنظام عالمي تسوده مبادئ الحق والعدل، ويقوده رجال مؤمنون صادقون يتبعون منهجاً سليماً كنهج محمد صلى الله عليه وسلم لحل جميع المشكلات بأسلوب يؤدي إلى السلام والسعادة اللذين يفتقر العالم إليهما كثيراً، كما هو رأي المفكر برناردشو.

وليس كالعرب من هم مؤهلون للقيام بهذا الدور الإنساني الكبير لانتشال البشرية من وهدتها، وإنقاذ العالم من شرور الصهيونية، وما تبيته لشعوب الأرض من خطط جهنمية، ومشاريع عدوانية، تستهدف حريته، وغذاءه، وأمنه، واستقراره.

ولا ريب في أن اختيار خاتم الأنبياء من بين قومه العرب، ونزول الرسالة الإلهية عليه بلغة الضاد، يشكلان برهاناً ساطعاً على مزايا وخصائص هذه الأمة المجيدة، وعلى سمو لغتها الفريدة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الفتوحات الإسلامية كانت تهدف في الدرجة الأولى إلى تحرير الشعوب، عن طريق نشر مبادئ العقيدة الجديدة، وسبيلها إلى ذلك الحجة والإقناع بهدي القرآن الكريم، ندرك أثر تلك العقيدة في نشر الرسالة السماوية التي حملها العرب إلى العالم بقيادة رسولهم العظيم.

وتتميز هذه القيادة الفذة بأنها لم تكتف بنشر مبادئ الدين الجديد بين بني البشر، بل عمدت من أجل ذلك إلى إعداد المؤمنين الأوائل إعداداً تربوياً وعلمياً وجهادياً فائقاً، أهلهم لحمل مسؤولياتهم الكبرى، ولخوض معارك الجهاد المظفرة؛ ولم تكن هزيمة أعظم قوتين في العالم في مطلق

القرن الأول الهجري على أيدي جحافل العرب المسلمين بنت الحظ أو المصادفة، إنما كانت وليدة الالتزام التام بالعقيدة الإسلامية، وذلك الإعداد القويم للمجاهدين الأبرار.

وكتب التاريخ حافلة بسيرة النبي العربي الكريم وبقصص بطولات أصحابه الميامين ومآثر أتباعه المؤمنين، والتزامهم جميعاً بمبادئ شريعة الإسلام التي لم تحدد أصول العبادات فقط؛ بل وضعت للمسلمين منهاج حياتهم الخاصة والعامة، وقواعد معاملاتهم، ومبادئ حربهم وسلمهم، بشكل يضمن لهم القوة والعزة، ويوفر لديارهم المنعة والحصانة، ويساعدهم على تحرير البشرية مما ترزح تحت وطأته من أمراض الجاهلية، وقيود العبودية، ومظاهر الظلم على اختلاف أسبابه وأشكاله.



الحل الأمثل

من المؤكد أن العرب ليسوا كلهم مسلمين، وإن كان الإسلام هو دين الأكثرية الساحقة منهم؛ كذلك ليس جميع المسلمين عرباً، وإن كان العرب هم الذين حملوا إلى الأقوام الأخرى رسالة الإسلام وأخذوا بأيديهم إلى طريق الهداية والنور.

فهل للعرب أن يتنكروا للعقيدة الإسلامية بعد أن وقع الاختيار عليهم ليكونوا الأمناء عليها وحملة رسالتها إلى العالم أجمع؟

وهل للمسلمين من غير العرب أن ينسلخوا نهائياً عن العرب، بعد أن كان العرب هم الذين أرشدوهم إلى هذا الدين القيم، وهدوهم إلى الصراط المستقيم؟

من البديهي أن تظل العقيدة الإسلامية هي الرباط الحضاري الوثيق الذي يجمع بين جميع العرب والمسلمين، وأي انفصام لهذا الوثاق من شأنه أن يورثهم الضعف والتشتت والضياع، وهي السبل التي كفلت لأعدائهم الانتقاص من شأنهم وسيادتهم، والاعتداء على حرياتهم وحرماتهم، والسيطرة على بلادهم وممتلكاتهم، والتحكم بمصائرهم ومقدراتهم.

لقد كان هذا الرباط، في الماضي، مصدر ائتلافهم وسبب نهضتهم؛ وسوف يكون كذلك في الحاضر والمستقبل، إن هم استمسكوا به عن قناعة وإيمان. وهذا ما يراه الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي، إذ يورد في

المقدمة التي توج بها كتاب (أعجب العجب من أحوال العرب) للشاعر العراقي عبد الحق حقي الأعظمي قوله:

"لم ينهض العرب في ماضيهم إلا بالدين الإسلامي وائتلاف أخلاقهم بأخلاقه ونفاذهم في أغراضه وغاياته، ولا ينهضون ولن ينهضوا إلا بذلك الدين عينه، وعلى هذا الوجه من ائتلاف الخلق بالعقيدة الصحيحة. والدين وحده هو الأصل الراسخ في الدماء والأعصاب، وهو المصدر الثابت الذي نستمد منه الوراثة؛ فرجوع الأمة إليه وفهمه حق الفهم، والعمل به حق العمل، هو كل ما تحتاج إليه الأمة العربية. والدين وحده كفيل بأن يؤاخي بينهم، ويجمع بعضهم على بعض، ويجعل من أحزابهم وقبائلهم وأمصارهم مادة متماسكة تماسك الجسم، على اختلاف أعضائه وعلى تباين ما بينها في أعمالها المتعددة".

إنه الحل الأمثل الذي اهتدى إليه في مطلع القرن العشرين الأستاذ الرافعي، وهو أحد أساطين الأدب العربي الحديث، بعد أن أشار إلى ما "أصاب العرب من دهاء السياسة الأوربية، ومما عبث بهم من أساليبها وحيلها التي جعلت بأسهم بينهم، وصارت تضرب المقبل منهم بالمدبر والمدبر بالمقبل، وتركتهم يخربون بيوتهم بأيديهم..".

وإذ نحن الآن على عتبة القرن الواحد والعشرين، نجد انعكاس آراء ذلك المفكر المصري في عدة مقالات نشرها المفكر اللبناني فكتور سحاب في الصحف اللبنانية، معبراً فيها عن أفكار ومشاعر إنسان وطني مخلص، لا يروم لشعبه إلا الحرية، ولا هم له إلا إنقاذ أبناء وطنه من الأحابيل التي تحاك ضد سلامتهم وأمنهم واستقرارهم في بلادهم.

وقد جمع هذا الكاتب الحر مقالاته في كتيب يحمل عنوان (من يحمي المسيحيين العرب)، وحملت الطبعة الثانية منه الصادرة عام ١٩٨٦ ما لخصه المؤلف على الصحيفة الأخيرة من غلاف الكتاب، بقوله:

"واجه المسيحيون العرب ثلاث حقب رئيسية من الاضطهاد في تاريخهم الطويل، أدت إلى معاناتهم وتقليص وجودهم وتهديد مستقبلهم. فكلما امتدت يد الغرب إلى المنطقة، أيام بيزنطة، ثم أيام دولة الصليبيين، فأيام السيطرة الغربية المعاصرة، كانت المجتمعات المسيحية العربية تتعرض لمخاطر الاضطهاد والقمع والإبادة. وكلما كان التدخل الغربي ينحسر، كان الاضطهاد ينحسر معه. هذا ما تؤكده وثائق التاريخ.

فما هي الحقيقة اليومَ في شأن حماية الغرب للمسيحيين العرب..؟ ومن الذي يحمي الآخر في الواقع..؟

أهو الغرب أم المسيحيون العرب؟

لقد كانت دولة العروبة المناهضة لسيطرة الغرب، على طول التاريخ، متسامحة مع المسيحيين العرب، وإن نسبة هذا التسامح إلى سمو خلقي، تفسير غير مقنع، فالعروبة الساعية إلى الاستقلال عن الغرب، لها مصلحة عليا في منع اضطهاد المسيحي العربي، لمنع التفتت والتفكيك. والغرب في المقابل يحتاج إلى هذا التفكيك ليهيمن".

وفي رسالة وجهها السيد سحاب إلى المؤتمر المسيحي الشهير في بكركي في التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٨٥ خاطب أصحاب المؤتمر قائلاً:

أنا اللبناني الماروني، من عرامون قضاء كسروان، أرجو أن تسجلوا عندكم ما يلي:

إنني عربي الانتماء والوجدان والأصل والمشاعر والمصير.

وإنني متضامن التضامن الكامل مع العرب والمسلمين المضطهدين في الوطن الصغير والوطن العربي الكبير في العالم.

وإنني متمسك بوحدة الآلام والآمال والمآل. مع إخوتي في العروبة، أياً كان دينهم ومذهبهم.

وإنني أرفض تمام الرفض كل محاولات استلحاق العرب النصارى بالغرب أو ربيبته إسرائيل.

وأعرب عن إيماني أن الحضارة العربية التي يشكل الإسلام الثقافي والحضاري عمودها الفقري ومفخرتها التاريخية، هي حضارتي وحضارة أجدادي وأولادي.

وأؤكد أن الخطر الذي يستبد بمصائر المسيحيين في لبنان هو خطر ناجم عن محاولات إلحاقهم بالغرب وأدواته.

وأن لا خطر على العربي المسيحي على الإطلاق، إذا أعرب بلا تردد عن عروبته غير الملتبسة، ولا المشروطة.

وأعلن رفضي أن أتحول وأولادي إلى كلاب حراسة لإسرائيل، أو أكياس رمل على جدارها "الطيب". وأدعو كل الذين كمت أفواههم في السنوات العشر الماضية، من المسيحيين الذين اختطف قرارهم، واتخذ زيد وعمرو صمتهم ذريعة للتحدث باسمهم، أدعوهم لرفع الصوت تداركاً للالتباس، ومنعاً للاتجار بجلود أبنائهم ومصائرهم. أدعو كل المسيحيين إلى إعلان لا غموض فيه ولا تردد ولا خوف، لأن الخوف اليوم أضحى خوفاً من الصمت، أدعوهم إلى إعلان عروبتهم، وعدائهم لإسرائيل، وتقديسهم للمقاومة الوطنية المجاهدة البطلة، واستعدادهم لافتداء هذه العروبة بالدم والمال وكل ما ملكت أيمانهم.

يا أصحاب المؤتمر في بكركي، سجلوا ما سبق في مقرراتكم، أو اشطبوا اسمي، ولا تحسبوني وأولادي فيمن تمثلون.

وسواء استجاب أعضاء المؤتمر المبجلون إلى نداء السيد سحاب أم لم يستجيبوا، فإن أصداء دعوته الحرة الخالصة ستتردد في آذان وضمائر جميع الأحرار من أبناء هذا الوطن، كما ردد هو نفسه أصداء قول الزعيم السياسي المصري الشهير، مكرم عبيد:

"أنا مسيحي في ديني، مسلم في وطني".

وقد أوضح الأستاذ سحاب هذا الكلام بما أورد في كتابه:

ولا شك أن المسيحيين العرب اليوم، هم من أولئك الناس الذين ينتمون إلى حضارة الإسلام، دون أن ينتموا إلى الإسلام ديناً".

ويمضي السيد سحاب في كتابه إلى القول:

"إذن فالإسلام الحضارة (أو فلنسمها العروبة في حال المسلمين والمسيحيين العرب) هي عامل تجميع لا تفريق".

لقد اهتدى الأستاذ سحاب إلى الحل الأمثل لجمع الشمل وتوحيد الكلمة بعد تحليل موضوعي عميق لوقائع التاريخ؛ ولم يصدر هذا التحليل عن السيد سحاب نتيجة انفعال عاطفي، بل هو صادر عن دراسة واعية لمجرى الحوادث وأسبابها وخلفياتها، مؤيدة بالوثائق التاريخية التي انتقاها من مظانها الأصلية، وهي تقطع الجدل حول تلازم العروبة، كقومية، والإسلام كحضارة.

إن موقف الإسلام من أهل الديانات السماوية السابقة، وترك حرية الاختيار لهم، ونبذ أساليب القوة والقسر في معاملتهم، هي من الحقائق التاريخية الراسخة في وجدان جميع الباحثين والمؤرخين الأجانب الذين درسوا تاريخ العرب والإسلام بتجرد وإنصاف.

وها هو ذا الدكتور غوستاف لوبون يرد على الزعم القائل: إن الإسلام انتشر بالقوة، ويشيد بسماحة هذا الدين وعدل العرب الذين نشروا مبادئه، بقوله:

"إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ما ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل".

"ولم ينتشر القرآن، إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً، كالترك والمغول".

"أدرك الخلفاء السابقون، الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة أن النظام والأديان ليست مما يفرض قسراً؛ فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا قيست بما كانوا يدفعون سابقاً في مقابل ضبط الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم".

إن الحل الذي توصل إليه السيد سحاب، عن طريق الدراسة المتأنية والتحليل الواعي من خلال منظور قومي عربي، لا تشوبه نزعة إقليمية أو نعرة طائفية، وبعد استقرار مراحل التسلط الأجنبي على الوطن العربي، وما نشأ عن ذلك التسلط من ظلم ومآس ومذابح متعاقبة، لم ينج من ويلاتها العرب جميعاً، المسلمون منهم والمسيحيون على حد سواء، هو الحل الديمقراطي القائم على أساس حكم الأكثرية من أبناء الوطن العربي

الواحد، الوطن الكبير الموحد لا المجزأ، هو الحكم الذي يستطيع أن يحقق السيادة التامة للأمة العربية، ويصون حريتها واستقلالها السياسي، ويحمي حقوق ومصالح وأرواح أبنائها، على اختلاف انتماءاتهم الروحية والمذهبية. وهذا الحل السليم، هو عكس ما يهدف إليه المستعمر الأجنبي، المتدخل في شؤون الوطن العربي، والساعي دائماً وأبداً إلى تفكيكه وتفتيته، وإلى ترجيح كفة الأقلية على الأكثرية، لا حباً بالأقلية وحماية لحقوق أبنائها، كما يزعم كذباً ونفاقاً، بل حرصاً على الزج بالجميع في أتون مستعر من الاضطرابات الداخلية والأحقاد والخلافات الطائفية، والحروب الأهلية، بقصد تشتيت جموعهم، وإنهاكهم في حمأة التناحر البغيض والاقتتال الدموي المدمر، الذي لا ينجو من ويلاته أحد، رجلاً كان أم امرأة، شيخاً مسناً أم طفلاً رضيعاً، وحتى الأجنة المودعون في بطون أمهاتهم.

انتحار الأمم

ما من أحد يستطيع إنكار الدور البناء الذي أسهم به أتباع الطائفة المارونية في إعمار لبنان وتحقيق نهضته العامة وازدهاره الاقتصادي، بعد جلاء الجيوش الأجنبية عن أراضيه، ومن خلال سياسة الوفاق الوطني والتعايش بين مختلف الطوائف اللبنانية.

ولكن القيادات المارونية التي أمعنت في بسط نفوذها القوي وعمدت إلى الاستئثار بالسلطة العليا والمراكز الحساسة في لبنان لم تتمكن من الحفاظ على استقرار الأوضاع السياسية والأمنية، والإبقاءِ على الوحدة الوطنية التي كرسها ميثاق ١٩٤٣، نظراً لاختلال التوازن الطائفي من جهة، وبسبب استشراء النعرة الطائفية والنزعة الانعزالية في أوساط بعض الهيئات المارونية، مما أدى من حيث النتيجة إلى انفراط عقد الوحدة الوطنية، وإلى تدهور الوضع الأمني بشكل دام ومدمر أتى بسرعة على معظم ما بنته النيات الطيبة والأيدي النظيفة خلال ثلاثة عقود من الزمن.

لقد توصل اللبنانيون، في ظل التحالف الوطني والائتلاف الودي بين الطوائف، بعد نيل الاستقلال، إلى إقامة مجتمع متطور، وإلى إشادة صرح اقتصادي متميز، حتى بات لبنان واحة للحرية والديمقراطية، وسوقاً مالية وتجارية مزدهرة؛ ولكن سرعان ما خسر هذا القطر العربي الجميل وجهه الحضاري ومكانته التجارية والاقتصادية السامية، عندما انغمس أبناؤه في غمار الفتن الطائفية والمعارك الدموية التي مزقت هذا القطر العزيز إلى أشلاء متناثرة، وأوصلته إلى درك سحيق من الفوضى

والاضطراب بشكل أضحى معه الكيان اللبناني فاقداً لأية مناعة ومعرضاً للغزو الصهيوني والاعتداء الخارجي.

وبدل أن يوجه السلاح اللبناني جميعه إلى صدور الأعداء لحماية هذا الجزء الغالي من الوطن ولصد غاراتهم الغادرة والمتكررة على أراضيه وشعبه، راحت الفصائل الطائفية المسلحة تمعن بالفتك بالأبناء اللبنانيين والإخوة الفلسطينيين على حد سواء، بشكل عشوائي ومدمر، دون رأفة أو وجل، في حرب أهلية داخلية، لا يمكن أن يخرج منها غالب أو مغلوب، لأنها حرب انتحارية عمياء، لا جدوى منها، ولا هدف لها سوى القتل والتخريب اللذين لا يفيد منهما إلا أعداء لبنان.

وعبثاً ذهبت جميع المساعي الحميدة التي بذلها المخلصون من قادة ومفكري لبنان والبلاد العربية، لإحلال الوفاق الوطني محل النزاع الدموي.

ويبدو أنه لم يعد ثمة سبيل للخروج من هذه المحنة الرهيبة التي وقع فيها اللبنانيون جميعاً، إلا باختيار الحل الذي اقترحه الكاتب الماروني فكتور سحاب، وهو الحل الأنسب، لا لمشكلة لبنان وحده، الناتجة عن حالة التمزق الداخلي والتفتت والتفكيك التي أحدثتها المؤامرات الاستعمارية والأحابيل الصهيونية وتخريب العناصر العميلة، بل لجميع مشاكل الأمة العربية والشعوب الإسلامية، وفي مقدمتها مشكلة فلسطين، التي لن تجد لها مخرجاً سليماً وحاسماً، إلا لدى جمع شمل العرب في جبهة واحدة وتضامن الشعوب الإسلامية الأخرى معهم، لتطهير الأرض المقدسة وتحرير الوطن العربي كله والعالم الإسلامي جميعه من أي نفوذ أجنبي.

إن توحيد الدول العربية في دولة واحدة تكون نواة لاجتماع الدول

الإسلامية في دولة اتحادية كبرى، هو السبيل الأجدى لإعادة شأن العرب والمسلمين، ولإظهارهم على أعدائهم الخارجيين، أياً كانوا ومهما بلغت قوتهم وتعاظم تحديهم، وهو الذي يساعد على توفير الحماية التامة لجميع العرب والمسلمين، أياً كانت انتماءاتهم القومية والروحية والمذهبية.

إن تفتيت الوطن العربي والعالم الإسلامي إلى دويلات، هو الذي جعل العرب والمسلمين مستضعفين في ديارهم، ومغلوبين على أمرهم، في ظل هيمنة الدول الكبرى على العالم الثالث، ليعيش أبناؤه عيش العبيد الأرقاء في أوطانهم، تسحقهم فيها الأنظمة الاستبدادية المسخرة لخدمة النفوذ الأجنبي والمصالح الاستعمارية، أو الفتن الطائفية حيث يتعرضون للقمع والإبادة في حمامات الدم الجماعية التي تسببها السياسات الاستعمارية والتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية لكل واحدة من تلك الدويلات.

إن الدرس البليغ الذي يمكن استخلاصه من هذه الأحوال الرهيبة التي تعيشها الأمة العربية والشعوب الإسلامية، والذي تمليه وقائع التاريخ وتسلسل الحوادث، هو أن القوة في الاتحاد، والضعف والضياع هما في التجزئة والانقسام. هذا الذي لا يمكن أن يخفي عن بصيرة أي إنسان عاقل ومتجرد.

عروبة وإسلام

مثل العروبة والإسلام كمثل الجسد والروح، فلا الجسد دون روح يقوى على الحركة ويقدر على البقاء، ولا الروح دون جسد تستطيع الحياة على وجه البسيطة.

ويرى الشيخ العصري خالد محمد خالد أن "العروبة هي الإسلام والإسلام هو العروبة. ولولا الإسلام لما سمع الناس عن العرب، بالرغم من أن لهم تاريخاً".

ويقول الكاتب التقدمي مصطفى الخش، في معرض الحديث عن أعظم ثورة فجرها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم:

وأعظم بالنبي العربي حين خاطب الناس: «أنا عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي.. من أحب العرب فقد أحبني، ومن أحبني فقد دخل الجنة».

"وانسياقاً مع هذا المنطق الكريم، فنحن عرب ومسلمون ومصممون أن نظل عرباً ومسلمين".

ويجب ألا ننسى أن الإسلام هو الذي حفظ عروبة الجزائر على الرغم من إلحاقها بالدولة الفرنسية قرابة قرن ونصف من الزمان. فهذا التلازم بين العروبة والإسلام الذي تتميز به الشخصية العربية، والذي يؤكده، بتصميم واعتزاز، كل من جهته، الشيخ المصري المتحرر والكاتب السوري

الملتزم، دليل ساطع على أن شعلة الإسلام وجذوة الإيمان ستظلان متوقدتين في الأقطار العربية كافة، وفي مختلف أوساط أبناء هذه الأمة التي اختارها الله لتحمل رسالته العظمى إلى البشرية جمعاء.

وفي "مقالة في العروبة والإسلام" أكد المفكر الاشتراكي إسماعيل العرفي أنه إذا كانت "العروبة هي الحقيقة القومية المطلقة للأمة العربية فالإسلام هو عقيدتها الكونية المثلى".

وبعد أن أظهر خطأ "طرح دعاة العروبة عروبتهم على المجتمع العربي طرحاً لا دينياً علمانياً محضاً أفرغوها فيه كلياً من الإسلام، وطرح دعاة الإسلام بدورهم إسلامهم طرحاً دينياً لاهوتياً بحتاً، جردوه فيه كلياً من العروبة"، منتقداً بشدة خطر الصراع بين طرفي هذا الطرح ومبيناً ضرره، ختم السيد العرفي بحثه القيم بتبيان سبب ما آلت إليه حال الأمة العربية من انحدار وتخلف بقوله:

"لقد تهادت الأمة العربية عن ملكوت خلافتها الأممية الرشيدة، وسقطت من علياء رسالتها الحضارية الخيرة، حينما أضاعت ذاتيتها العروبية الفذة، أي حينما تجردت من حقيقتها القومية التي هي العروبة، وتخلت عن عقيدتها الكونية المثلى التي هي الإسلام".

ولا بد لكل أمة حضارية من عقيدة أساسية تلتزم بمبادئها وتسير على هديها، لتستقل في إدارة أمورها السياسية وتدبير شؤونها الاقتصادية ومعالجة مشاكلها الاجتماعية، ولتقوى على حماية استقلالها والذود عن كيانها ووحدة أراضيها، وتحافظ على وجودها قوية عزيزة بين الأمم. ومن العقائد ما هو دنيوي وضعي من صنع البشر، ومنها ما هو ديني منزل من السماء. والدين الإسلامي هو عقيدة العرب المنزلة إليهم، وهو قوام حضارتهم، وبه ملؤوا الدنيا عدلاً وعلماً وعمراناً.

فهذه العقيدة المثلى التي جمعت شمل العرب لدى بزوغ فجر الإسلام، وجعلتهم أئمة العالم كله، وأهلتهم لقيادة البشرية إلى مراقي التحرر والتقدم، هي الضمانة في عودتهم إلى سيرتهم الأولى إن هم عادوا للالتزام بمبادئها والاستمساك بأهدابها، وتطبيق أحكامها بالفعل لا بالقول.

ولا ضير هنا من الإفادة من خطط سير الأعداء أنفسهم وتجاربهم. فقد توصلت الحركة الصهيونية إلى ربط يهود العالم بفكرة "الوطن القومي" الذي كانت نواته الجالية اليهودية، قليلة العدد، الموجودة في فلسطين. وقد أظهر المؤلف اليهودي جبرائيل آرييه، في كتابه (التاريخ اليهودي) الصادر بالفرنسية عام ١٩٢٣، الدور الهام الذي لعبته العقيدة اليهودية في التوفيق بين الاتجاه الروحي والنزعات الوطنية والمادية لمختلف أتباع الديانة اليهودية المتناثرين في أرجاء الكرة الأرضية.

فإذا كانت الحركة الصهيونية قد توصلت إلى جمع شتات اليهود من أنحاء المعمورة، الذين هم، مع قلة عددهم وضآلة شأنهم، ينتمون في الواقع إلى قوميات متعددة وجنسيات مختلفة وعروق وألوان متباينة، وتمكنت من إنشاء وطن مصطنع لهم في أرض ليست أرضهم، تحت لواء عقيدة التوراة المحرفة وما تلاها من مؤلفات دينية هي من وضع أحبارهم وحاخاماتهم. فلماذا لا تعمل الحركة العربية على جمع شمل العرب، وهم قوم واحد وأصحاب هذه الأرض الشرعية، تحت لواء العقيدة الإسلامية الأصيلة، والتي كانت إلى الأمس القريب مصدر قوتهم، وعماد نهضتهم، وعنوان حضارتهم، والسبب المباشر في سؤددهم.

وتثبت وقائع التاريخ بشكل قاطع أن العدو الخارجي لم يستطع النيل من تلك القوة وتحطيم ذلك السؤدد، إلا عندما كانت تتخلخل العروة الوثقى التي تربط بين العروبة والإسلام. وإن أخطر سلاح استخدمه

المستعمرون، في العصر الراهن، لإحداث مثل هذا الشرخ الوبيل بين العروبة والإسلام، هو الغزو الفكري والثقافي الذي مهدوا به السبيل للغزو العسكري والاحتلال الاستيطاني، ولبسط الهيمنة والنفوذ الأجنبي على دول وشعوب المنطقة.

ومع بواكير هذا الغزو الذي حملت أسلحته الفتاكة الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية ووسائل الإعلام الغربية والأمريكية، غرست هذه الإرساليات والمدارس والأجهزة في نفوس أبناء الأجيال الجديدة أفكار الغرب ومناهجه الثقافية، وأساليب الحياة الغربية، ونجحت هذه الأفكار والمناهج في إثارة الشعور القومي لدى أبناء الشرق، وتمكنت في آن واحد من إضعاف جذوة الإيمان في نفوسهم، وحدث الانشطار الخطير في صفوف العرب والمسلمين، بتأثير ذلك الغزو الفكري والثقافي من جهة، وبفعل الدسائس والمؤامرات التي تحوكها دوائر المخابرات الأجنبية، وتؤازرها عناصر الطابور الخامس، من يهود (دونمه) وعملاء تشتريهم تلك الأجهزة من ذوي النفوس الضعيفة والضمائر الرخيصة.

ويجب ألا ننسى الدور الهدام الذي قامت به الحركة الماسونية بعد أن تغلغلت خلال القرن التاسع عشر، في صفوف الشبان الأغرار الساعين وراء النجاح السريع والربح المادي الوفير، والوظائف الكبرى، والمراكز الرفيعة، والشهرة الفارغة.

فترعرع هؤلاء الشبان في أحضان المحافل الماسونية، وانساقوا بغباء لتحقيق مبادئ هذه الحركة السرية، وخدمة أهدافها الشيطانية الرامية إلى تنفيذ مآرب وأهداف الحركة الصهيونية المتحالفة مع الدوائر الاستعمارية؛ ومن جملة تلك الأهداف إعادة بناء هيكل سليمان، وإقامة دولة داود العالمية، وما شابه ذلك من أحلام بني إسرائيل الخرافية.

وكان هؤلاء الماسونيون، من أبناء البلاد العربية والإسلامية، حصانَ طروادة، امتطاه المستعمرون والصهاينة، وحققوا بواسطته كثيراً من خططهم العدوانية ومشاريعهم الاستعمارية، وأساليبهم التسلطية، دون كلفة أو عناء كبيرين.

ولا مبالغة إذا أكدنا أن فلسطين برمتها قدمت هدية خالصة إلى الصهاينة على طبق من ذهب، بأيد عربية كانت صدور أصحابها تتشح بشعارات ورموز الحركة الماسونية.

والماسونية، كما يعرفها الدكتور محمد علي الزعبي في كتابه (الماسونية في العراء)، هي دعامة دولة إسرائيل:

"- لعبت دوراً خطيراً بالسياسة العالمية، وجهدت بالخفاء للاستيلاء على مقدرات الشعوب، وتقنعت بالإنسانية والمثالية، وسخرت الناس بحكمة الأفعى، لخدمة شعب الله المختار..

- جعلت من غير اليهودي عبداً لليهود، واستخدمت رجال السياسة والمال والزعامة، وذوي الوزن الخفيف من رجال الفكر.

- أقامت من الملايين جسراً تمرُّ عليه إسرائيل، وشكلت منهم روافد، لتساوي نهراً يغرق العالم، ليطفو على وجهه صهيون".

إن الماسوني العربي يبدأ انتسابه إلى هذه الحركة المريبة بأداء القسم على الكتاب المقدس، الإنجيل والقرآن، تحدوه إلى ذلك الشعارات البراقة في "الحرية والمساواة والإخاء"، ولا يلبث بعد تدرجه في المراتب الماسونية المتعددة أن يرى نفسه، وهو في أعلى الدرجات، منزلقاً إلى هوة الشباك الصهيونية، وما يملى عليه من أوامر في تنفيذها خدمة لأعداء قومه. فهو إذا ما تابع المسيرة الماسونية، وجد نفسه في نهاية المطاف خائناً لأمته، وخارجاً على وطنه. وإن حاول المعاندة في

منتصف الطريق، سرعان ما ينال جزاءه الصارم، وغالباً ما يلقى حتفه على أيدي إخوته الماسونيين "الأحرار".

ففي مقدمة كتاب (حضارة العرب) الذي وضعه المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في أواخر القرن التاسع عشر، أوضح المؤلف كيف:

"تسيطر الحضارة العربية من اثني عشر قرناً على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال إفريقية الداخلية، وكان سكان هذه البلاد المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون الآن بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة، ونظم واحدة، وفنون واحدة".

وختم العلامة الفرنسي الكبير كتابه بتلخيصه على الوجه التالي:

"إن الأمم التي فاقت العرب تمدناً قليلة إلى الغاية، وإننا لا نذكر أمة حققت من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوا، وإن العرب أقاموا حضارة بمعتقداتهم وعاداتهم وفن عمارتهم".

وقال:

"إن الأمم التي غابت عن التاريخ لم تترك غير أطلال، وصارت أديانها ولغاتها وفنونها ذكريات، أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم حية".

ويقول "دارير" أحد علماء أمريكة المشهورين:

"قد تأخذنا الدهشة إذا نظرنا في كتب العرب، فنجد فيها آراء نعتقد أنها لم تولد إلا في زمننا هذا، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها. فإن هذا العلم علَّمَه العرب قديماً في مدارسهم، وذهبوا فيه إلى أبعد حد إليه".

وختم الدكتور الزعبي بحثه القيم بقول العالم "سبنسر":

"لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القُبَّة الزرقاء دون أن يلفظ اسماً عربياً. ولا يستطيع عالم طبيعي أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربياً. ولا يقدر أي قاض أن يبت اليوم في اختلاف (نزاع) دون أن يستدعي مبدأ أملته العرب. ولا يستطيع أي طبيب أن يتلمس دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم دونَ أن يهمس بآراء طبيب عربي"..

وقد أثبت المستشرق السوفييتي "كونراد" : "أن عهد النهضة الذي تعتز به إيطالية، وأيما اعتزاز، بدأ في الشرق قبل أن يبدأ في الغرب".

كما أثبت المستشرق والباحث في الشؤون الإسلامية الأكاديمي السوفييتي الشهير "بارتولد" في مؤلفه (ثقافة الإسلام): "أن مستوى الثقافة والتعليم في بلدان العالم الإسلامي كان يتفوق كثيراً في المرحلة الباكرة من القرون الوسطى على مستواهما في أوربة، وأوضح بالتفصيل الأهمية البالغة التي اتسمت بها بالنسبة إلى البشرية جمعاء أعمال أعاظم العلماء من أمثال محمد بن موسى الخوارزمي.

ويقول "توماس كارليل" العالم الإنجليزي:

"لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا به أمة خاملة. لا يسمع لها صوت، ولا تحس منها حركة، منذ بدأ العالم، فأرسل الله نبياً بكلمة من لدنه، ورسالة من قبله، فإذا الخمول نباهة، والغموض قد استحال شهرة. والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقاً، وسع نوره الأنحاء، وعمَّ ضوؤه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل في الهند، ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة، ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل، والمروءة والنجدة، ورونق الحياة والهدى على نصف المعمورة".

علم وعمل

لا يمكن للوحدة العربية أن تتحقق على أساس علماني بحت مجرد عن العقيدة الإسلامية، وهي الصلة الروحية التي شدت العرب بعضهم إلى بعض، وجعلتهم أمة واحدة بعد أن كانوا قبائل متفرقة متناحرة. ولولا ظهور الإسلام، لما قامت للعرب قائمة، ولما تحرروا من نير الحكم الأجنبي، ولما علا شأنهم بين الأمم، ولما ظلت راية العروبة والإسلام الواحدة شامخةً ردحاً طويلاً من الزمن، ترفعها عالياً في سماء العالم دولة حضارية عظمى، لها الصدارة بين الدول، عقيدتها الإسلام، ودستورها القرآن، ولغتها العربية، لا ينفذ الأعداء إلى ثغورها، ولا يطؤون شواطئها، ويحتلون أراضيها، إلا عندما تطغى العصبيات القبلية والنزعات الإقليمية على تجمعاتها، وتطفو العنعنات الطائفية على سطح علاقاتِ أبنائها بعضهم ببعض، وتستحكم عقد النقص وشهوة الحكم في نفوس زعمائها، وتسود الأنانيات والمصالح الشخصية بين أفرادها.

والمخجل أننا نجد، في العصر الحاضر، أكثر من خمس وأربعين راية ترتعد، بضعة وهوان، فوق ربوع البلاد العربية والإسلامية، لتمثل في تعددها وتكاثرها، حالة التمزق والضياع التي تسود مختلف أرجاء الوطن العربي المجزأ، والعالم الإسلامي المشتت.

وقد دلت التجارب الوحدوية المعاصرة التي جرت في أرض الواقع العربي، مع تعددها على أن الرباط القومي وحده ليس كافياً لقيام دولة الوحدة ودوام بقائها واستقرارها واستمرارها. لا بل أكثر من ذلك، إذ تبين

أن الحركات السياسية العربية المتصفة بالعلمانية، بصرف النظر عن نيات دُعاتها، وإخلاصهم لمبادئها، وحماستهم لتحقيق أهدافها، لم تؤد إلا إلى مزيد من التمزق و "التشرذم"، وإلى نمو الحركات الإقليمية والنزعات الطائفية في جنباتها، مع ما تجره هذه النزعات، لدى تفاقم خطرها وتفجرها، من تقويض للجهود المخلصة التي يبذلها الحركيون القوميون، ومن إحباط لكفاحهم الباسل والمرير في سبيل تحقيق أهدافهم في الوحدة العربية والتحرير. وقد أسفرت البحوث التي أجرتها الدوائر الأمريكية حول مسألة (يقظة الأمة العربية) عن نتيجة مؤلمة أعلنتها وزارة الخارجية الأمريكية في وثيقة رسمية صدرت عنها في ١٤/ ١١/ ١٩٦٨ وأبرمتها وكالة أنباء "رويتر" في اليوم ذاته من واشنطن مآلها أن "مشكلة القومية العربية تسببت في انقسامات خطيرة بين الدول العربية المحافظة والثورية، كما تسببت في تنافس مر بين حركات قومية عربية مختلفة". وهذا طبعاً ما تعمد وتسعى إليه الدوائر الاستعمارية والإسرائيلية المعادية للعرب، بدسائسها ومؤامراتها، ليظل العرب منقسمين على أنفسهم ومتناحرين فيما بينهم. كما برهنت التجارب الحية على مدى الكره والتباغض اللذين يستحكمان بين أعضاء الحركة الواحدة عندما ينقسمون على أنفسهم، وينجرون على الأعم والأغلب، إلى التنازع فيما بينهم حول مفاهيم غامضة وغير محددة.

وينتهي بهم الأمر إلى القطيعة التامة، والخصومات الشديدة، والصراعات الحادة. بينما يلاحظ بجلاء تام، كيف تسود المحبة بين المؤمنين، حتى لو كانوا يعيشون في أقطار متباعدة، فاللإسلام قوة خلاقة تولد المحبة والتعاطف في النفوس، وقدرة خارقة على التأليف بين القلوب. والمؤمنون الذين يقفون بين يدي خالقهم، كل يوم خمس مرات في صلواتهم، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، عربيهم وأعجميهم، يشعرون وكأن تياراً جارفاً من الألفة والمحبة يعتمر

صدورهم. ويكتمل العقد بصورة أكثر روعة وبهاء في صلوات الجمعة والعيدين، عندما يولي الملايين والملايين وجوههم، بصفوف متراصة، وبأفئدة خاشعة، شطر البيت الحرام، وهو الرمز العظيم الذي يلتف حوله المسلمون في وحدة منقطعة النظير.

إن هذه اللقاءات الحميمة، لا يمكن أن يتسنى عقدها لأي تجمع بشري، أو حزب سياسي، مهما بلغت سعة قواعده، ودقة تنظيمه، وبراعة قادته، ودرجة نجاحهم في إدارة شؤونه وتوجيه أعضائه.

ويأتي موسم الحج، كل سنة ليعطي الفرصة للمسلمين لعقد أكبر مؤتمر إسلامي عام تحضره ملايين عديدة من المؤمنين، تلتقي وتنتظم في مشهد رائع، بحيويته وطهارته وصفائه، لا يشوبه غل أو تأثيم، ولا يعكره رفث ولا فسوق ولا جدال.

ويزيد من روعة هذا المهرجان العالمي الكبير، الذي يحتفل فيه المسلمون كل سنة في المكان نفسه، على الأرض المقدسة، حيث انبثق النور وهبط الوحي على أعظم نبي ورسول؛ تتجسد المثل العليا في سيرته العطرة، وفي الرسالة السماوية التي بلغها هدىً للناس، وحملها رحمة للعالمين، والتي أتحفت البشرية بنموذج فذ للمجتمع الحضاري الذي تسوده مبادئ الحق والعدل.

ويتحدث الشيخ خالد محمد خالد عن هذا المجتمع وما تعده به الشريعة الإسلامية، بقوله:

"لما كان مجتمعنا يعيش في ظل الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، فلا بد أن تستعيد الشريعة الإسلامية نفوذها ويسترد المجتمع نورها متوسلين في تحقيق هذا بالفهم المستنير والاجتهاد الحر واحترام المعاصرة".

ومما يساعد العرب والمسلمين على الأخذ بروح المعاصرة واستيعاب المنجزات الحديثة في شتى ميادين الحياة أن شريعة الإسلام تقوم على

العلم والعمل؛ والعلم شقان: ديني ودنيوي. وقد أخطأ المربون العرب، في العصر الحاضر، متأثرين بالبرامج الثقافية الغربية، عندما أهملوا علوم الدين ووجهوا اهتمامهم إلى العلوم الدنيوية، مكتفين منها بالقشور السطحية دون اللباب، فتخرج على أيديهم جيل تائه حائر، فلا هو متمكن من أصول دينه وشريعته، ولا هو ممسكٌ بزمام التقنية الحديثة ليتمكن بواسطتها من تملك الأداة التي تساعده على حماية وطنه وكرامته. رغم أن الشريعة الإسلامية تحض في آن واحد على العلم والعمل، العلم بشقيه، والعمل بإتقان ابتغاء مرضاة الله الذي يحب من يتقن عمله ويمقت الخانعين والمقصرين.

ولا بد لتحقيق النهضة المرتجاة من إعادة النظر في برامج التعليم المطبقة في البلدان العربية، والإسلامية، والتوجه نحو تربية الأجيال تربية إسلامية خالصة موحدة، بطريقة تجعل كل فرد واعياً حقيقة خلقه ووجوده ودوره في الحياة الدنيا، وتحمله في الوقت ذاته على تلقف العلوم الدنيوية بعمق باعتبارها الوسيلة الناجعة التي تساعده على أداء هذا الدور بما يخدم دينه ودنياه، ويضمن له سعادة الدارين، ويضعه على ذات المسار الذي سلكه أجداده الأفذاذ من حكام وقادة عظام وعلماء جهابذة. ليتمكنوا بجهدهم وجهادهم، وجدهم واجتهادهم، من الإمساك بزمام قيادهم بأيد قوية وعقول نيرة. فإن هم فتحوا البلدان، كانوا رسل حضارة وتمدين، وإن هم اقتحموا ميدان العلم، كانوا أئمة ومعلمين.

وفي نطاق الحكم ومجال السياسة، أبدع ذاك الرعيل الأول الملتزم بمبادئ الشريعة نظام حكم نموذجي، قائم على إقرار الحق وإرساء العدل وتحقيق المساواة التامة بين الناس، بالفعل لا بالقول وحده، لا يعدله نظام حكم آخر، سابق أو لاحق له، في إنسانيته وعدالته وفي مرونته وسماحته.

إذ لم يكن نظاماً دينياً محضاً، ولم يبن على أساس كهنوتي يتحكم فيه رجل الدين بشؤون الرعية، متذرعاً باستمداد سلطته من العناية الإلهية، ومحيطاً نفسه بحصانة زائفة ما أنزل الله بها من سلطان. فلا كهانة في الإسلام، ويقتصر دور الفقيه العالم في المجتمع الإسلامي على أن يكون معلماً ومبشراً.

ويصف الدكتور طه حسين النظام الإسلامي وصفاً واقعياً دقيقاً، بقوله:

"لم يكن هذا النظام نظاماً سماوياً، وإنما كان نظاماً إنسانياً، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جداً. لم يكن الخليفة يصدر عن وحي أو شيء يشبه الوحي في كل ما يأتي ويدع، ولكنه كان على ذلك مقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغي".

وإشادة مثل هذا النظام من جديد ليس بالأمر المستحيل، وإن كان يتطلب عزم المؤمنين وجهود المجاهدين من أجل إقامته، ليعيد للأمة العربية شأنها وسيادتها وللإسلام دوره وصفاءه ورونقه.

واحترام المعاصرة لن يكون إلا بالأخذ، بجد وصدق وإخلاص، بأسباب العلم والعمل، فبدونهما لا يمكن تحقيق أي تقدم أو نهضة. ولا عذر للعرب والمسلمين في الانصراف عن العلم، وفي التقاعس عن العمل، إذ ما من شرعة في الدنيا كشريعة الإسلام تحض بشدة وبإلحاح على العلم والعمل معاً. يُعَرِّض الشيخ محمد الغزالي في ختام أحدث كتاب له، نشرته جريدة "الشرق الأوسط" على حلقات، بحالة الانهزام النفسي التي تعتري المسلمين، وبعجز العرب حتى عن تعلم لغتهم، ويندد بهذا التقاعس المفرط مع توافر الإمكانات لديهم لو أرادوا خدمة الإسلام عن طريق الدعاية والتثقيف وتوعية غيرهم بما عندهم، بقوله:

"والكسل لا يسوغ الكسل، والتفريط لا يستتبع التفريط".

"إن عشر معشار ما ملك العرب من أموال كان حقيقاً بأن يسد هذا الخلل، ولكن فقر النيّات والمواهب قعد بنا ونال منا، وحسابنا عند الله عسير".

وبعد أن يتحسر الشيخ الغزالي على هذه الحال، يقول:

"بم اشتغل العرب؟ ولماذا ينتظرون أن يجيء الناس إليهم؟ أليست هذه خيانة لأمانات الدعوة وتفريطاً في جنب الله؟ وماذا كسب العرب من تنازعهم على السلطان؟ وعشقهم للرياسات؟ وتقاتلهم على الحطام والبريق المخادع؟

لا شيء إلا ضياع الدين والدنيا معاً".

"نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع"

وعله من المفيد، في هذا المجال، التمعن في ما أورده الكاتب الفرنسي جورج دوهامل، عضو الأكاديمية الفرنسية، في كتابه "استفتاء في بلاد الإسلام" الصادر عام ١٩٤٧، حيث يجري المقارنة بين كل من إسماعيل وإسرائيل. فبينما لا يسلم الأول بروح المنهج، يسعى الثاني إلى التفيؤ بضيائه. ويشير المؤلف في سياق مقارنته الطريفة هذه إلى توافد أبناء إسرائيل، من أمثال ليفي وكوهين، الذين يحملون أسماء أجدادهم، من الحي اليهودي في مدن إفريقية الشمالية إلى المعاهد الفرنسية لتلقف العلم بشغف وتفهم، فسرعان ما ينتقلون من مقاعد الدرس الخلفية إلى المقام الأول ليصبحوا بعد جيلين أساتذة، ولا يلبث الجيل الثالث منهم أن يضحي قادراً على استلام مراكز القيادة في العاصمة ليقيم الدليل على أن علوم الغرب ليست من السحر في شيء، ويمكن اكتسابها؛ ويتساءل الكاتب عما إذا كان إسماعيل، المزهو بنفسه، سيفيد من هذا المثل.

ولله در الشاعر العربي إذ يقول:

إذا ما الجهل خيم في بلاد فأقم عليها مأتماً وعويلا

ولا شك في أن الجهل هو من أخطر أسباب التخلف، ومن آثاره المحزنة الضعف والبؤس المورثان الحسرة والرثاء.

ولا بد، للانعتاق من حالة التخلف، من سلوك سبيل العلم والاغتراف من معين المعرفة. وما من شرعة تحض على العلم كالإسلام. هذا ما يبرزه العالم الفرنسي الطبيب موريس بوكاي (Maurice Bucay) في مقدمة كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) الذي نشرته دار المعارف في مصر، إذ يقول:

"ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائماً أنّ الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وإن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوربة. وإن التقدم الذي تم اليوم بفضل المعارف العلمية في شرح بعض ما لم يكن مفهوماً، أو في شرح بعض ما قد أسيء تفسيره حتى الآن من آيات القرآن، ليشكل قمة المواجهة بين العلم والكتب المقدسة".

وما على العرب والمسلمين، إذا أرادوا الإسهام في إشادة صرح الحضارة من جديد، إلا أن ينكبوا على العلم والعمل، كما تأمرهم به شريعتهم، ويأخذوا بالمنهج العلمي، كما فعل أجدادهم، فلن يمضي قليل من الوقت إلا ويصبحون بدورهم أساتذة للعالم ومرشدين، ثم قادة ومحررين.



بين الماضي والحاضر

إن من يطلع على أحوال العرب والمسلمين في العصر الحاضر ويوازن بين ما هم عليه اليوم وما كانوا عليه في الأمس، من قوة وتعاضد وتحفز ونهضة، يهاله أن يرى ما هم عليه اليوم من ضعف وتشتت وضياع وتخلف، وتعتريه الدهشة لشدة تنافرهم وانقسامهم إلى عدد كبير من الدويلات المستضعفة، والمغلوبة على أمرها، والمتناحرة فيما بينها، والخاضعة للنفوذ الأجنبي، وهي أحوال أسوأ مما كانت عليه أوضاع عرب الجاهلية الذين كانوا مجزئين إلى قبائل متناحرة؛ بعضها خاضع لنفوذ دولتي الفرس والروم، إلى أن جاءهم الإسلام بهديه، وظللهم بنوره، فجمع شملهم من بعد تشتت وانقسام، ووحد صفوفهم، وجعل منهم دولة واحدة، وسرعان ما انقلبت تلك الدولة الفتية إلى دولة عظمى وصفها أحد مؤرخي الغرب على النحو التالي:

"تكونت الإمبراطورية الإسلامية الفسيحة في سرعة لا مثيل لها في تاريخ قيام الإمبراطوريات الكبرى. ففي خلال قرن واحد انتشر العرب من جبال البيرنز على حدود فرنسة إلى جبال الباميرز في أواسط آسية، في عالم متصل الأجزاء يمتد من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف من الأميال..

ولتقترب الصورة من أذهاننا، فلنتصور أمر هذا الجيل العظيم من أجيال الإنسانية الذي شهد ما لم يشهده جيل من قبله ولا من بعده، جيل من الشباب لم يكن يعرف من هذا العالم الفسيح إلا بقعة صغيرة من الصحراء قد تكون مكة أو المدينة أو الطائف، وقد تكون مساحة صغيرة

من الأرض تعيش فيها قبيلته وترعى فيها إبلها وأنعامها. ثم خرج هذا الشاب المجاهد، في يده السيف وفي صدره القرآن، ومضى إلى العالم الفسيح لأول مرة.. فلما بلغ سن الرجولة وقبل أن يصير كهلاً أو شيخاً، صار في وسعه أن يذهب إلى أقصى الشرق أو إلى أقصى الغرب.. أن يذهب إلى فارس أو الهند شرقاً. أو إلى الشام حتى جبال طوروس شمالاً.. أو يذهب غرباً إلى مصر ويمضي إلى المغرب.. أو يعبر البحر ويذهب إلى إسبانية والبرتغال، فيجد هناك آلافاً من بني قومه يتكلمون العربية، ويرتلون القرآن، ويقيمون هناك شريعة الإسلام..".

إن هذه الصورة الوضاءة الزاهية لحقبة هامة من تاريخ البشرية، لو صدرت عن كاتب عربي، لوجد بين عرب اليوم أنفسهم من يتهمه بالمبالغة والتبجح؛ ولكن صدورها عن مؤرخ غربي يضفي عليها أهمية خاصة تتصل بالحقيقة التاريخية الدامغة، وهي أن الشريعة الإسلامية كانت الشعلة المنيرة التي حملها العرب لينقلوا بها العالم بأسره من ظلال الجاهلية، ونير العبودية، وحالة التخلف، إلى نور العلم وميادين التحرر، ومجالات التقدم والرقي.

وفي الحقيقة.. إن الدولة الكبرى التي تكونت بظهور الإسلام وانتشاره لم تكن إمبراطورية تقوم على استعباد الشعوب واستعمار بلادهم والتعالي على أبنائها، ولكنَّ العرب إنما أنشؤوا بقيامها داراً للإسلام ومجتمعاً مثالياً موحداً تسوده مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، وتشده بعضه إلى بعض أواصر المحبة والتعاون والتكافل، بما لم تشهد له البشرية مثيلاً.

والمنصفون من مؤرخي الغرب يسلمون بهذه الحقيقة، ويشيدون بالدور الإيجابي البناء الذي قام به العرب المسلمون في إنهاض العالم من عثاره، يوم كان يتخبط في دياجير الظلام والجهل، وكثيرة هي المؤلفات والكتابات التي تأخذ هذا المنحى في تحليل وقائع التاريخ، لا حباً

بالعرب أو محاباة لهم، بل اعترافاً بفضلهم، وإبرازاً لدورهم الحضاري المجيد.

وفي كتابه الذي يحمل عنوان (المعجزة العربية) ألقى المؤرخ الفرنسي (ماكس فانتاجو) الضوء على ما قدمه العرب تحت مظلة الإسلام من إنجازات علمية وحضارية باهرة. وفي مقدمة الكتاب أشاد المستشرق الفرنسي الشهير "لويس ماسينيون" بفضل العرب وسمو حضارتهم وأصالة لغتهم التي تنبأ بأنها ستصبح لغة السلام في العالم.

وقد ردّ كبير المستشرقين "ماسينيون" على من يتهمون العرب بالوقوع تحت نير التقنية الاستعمارية واللغات الآرية الأكثر ملاءمة للتعبير عن التصنيع الحديث بقوله:

"من حق العرب علينا نحن ضيوفهم والوافدين عليهم من مثلي أنا والسيد فانتاجو، أن نرفع الصوت عالياً، طالبين إليهم المقاومة، أن يقاوموا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتقاليدهم وآبائهم، والاستسلام أمام القوة الاستعمارية ورؤوس الأموال المصرفية التي تطلب إليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة، حضارة الإنسان الآلي التي لم تعد تؤمن بنفسها، أو بالذات الإلهية، وتصبو إلى إخضاع العالم لنظامية ثقافية أميركية بلهاء، إن هذا الإنتاج الصناعي المغشوش سيسقط وشيكاً، ليصعدوا، فالعالم بحاجة إليهم".

"العالم بحاجة إلى العرب"، هذا ما يقرره عميد المستشرقين الفرنسيين بعد دراسة مطولة لتاريخ الإسلام والتراث العربي الإسلامي الغني. وقد تزامن هذا الرأي مع رأي أحد كبار الدعاة المسلمين، وهو أبو الحسن علي الحسني الندوي، الذي شرح في كتابه (ماذا خسر العالم

بانحطاط المسلمين) الصادر عام ١٩٥٠ كيف أن "العالم العربي بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي ويزاحم أوربة بعد الاستعداد الكامل وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله، ويحول العالم من الشر إلى الخير، ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام".

ويمضي هذا الداعية الهندي المؤمن إلى القول: "إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب، وهي الطريق التي جربوها في عهدهم الأول، الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها، وتبنيها والتفاني في سبيلها، وتفضيل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة".

والهدف المنشود ليس هو بالتأكيد انتزاع زمام القيادة من أيدي الأمم الأخرى وإرساؤه في أيدي العرب لمجرد الرغبة في السيادة؛ ولكن الأهم هو انتشال البشرية من الوهدة السحيقة التي أودى بالعالم إليها النظام العالمي الحالي، وعجزه عن إيجاد الحلول لمشاكل الشعوب التي ترزح تحت وطأة هذا النظام الجائر والقائم على تسلط الأقوياء على الضعفاء. والذي لا بدَّ من الكفاح من أجل تغييره. والعرب المزودون بعقيدة الإسلام، هم المؤهلون لقيادة هذا الكفاح.

والذي يشجع على السعي لتحقيق هذا الهدف، ما أعلنه عالم الاقتصاد البريطاني "أحمد كريستوفر شامون" أخيراً، بعد اعتناقه الإسلام، بقوله الذي نقله إلينا المؤلف محمد الغزالي عبر جريدة "الشرق الأوسط":

"لقد وجدت في الإسلام ما كنت أبحث عنه! فأي مشكلة يعاني منها المرء في حياته سوف يجد حلها في القرآن الكريم..".

"إنني قرأت حتى الآن ست سور من القرآن الكريم، وقد شعرت بأن

الإسلام يملك أسباب التقدم الحضاري والتفوق العلمي، ولكن المسلمين متقوقعون (!) يعيشون بعيداً عن هدى دينهم، وهو ما جعل غيرهم من الشعوب يسبقهم ويرجح عليهم. ولم يكن المسلمون الأوائل على هذا النحو السيئ! لقد كانوا أول سالك لطريق الحضارة والتقدم في شتى الميادين العلمية والاجتماعية والاقتصادية!».

فنحن، العربَ الموَحِّدين، هلا وعينا هذا الكلام الذي يصدر عن أناس ليسوا من أرومة عربية، ولا ينشدون من ورائه الحق والخير والسلام لعموم البشر؟

وهلا خرج المسلمون من تقوقعهم واتبعوا الصراط المرصوف أمامهم، ليضمنوا لأنفسهم سعادة الدارين؟ ومثل هذه السعادة لا يمكن أن تتأتى بمجرد النطق بالشهادتين وأداء العبادات؛ إذا لم تقترن هذه العبادات بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق والضرب على أيدي المعتدين.

البيان الانتخابي

أيها الناخب الكريم:

في هذا الظرف الخطير الذي يتعاظم فيه خطر الاستعمار، ويشتد فيه نضال الأمة العربية في سبيل تحرير أجزاء الوطن العربي، وإحباط المؤمرات الاستعمارية الرهيبة، ستجد نفسك، أيها المواطن الأبي، بعد أيام قلائل، وجهاً لوجه أمام واجبك الوطني المقدس حيث إنك مدعو يوم ٤ أيار ١٩٥٧ لممارسة حقك الانتخابي لإملاء الكرسي النيابي الشاغر عن مدينة دمشق بعد سقوط النيابة عمن ثبت اشتراكه في جريمة الخيانة والتآمر على سلامة الوطن.

إن هذه المعركة الانتخابية هي في الحقيقة امتحان جديد لإرادة الشعب، وهي تتطلب، أكثر من أي وقت مضى، تكاتف المواطنين جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم السياسية والفكرية لانتخاب العناصر الوطنية المخلصة المناضلة في سبيل تحقيق أهداف الأمة العربية.

وإنني إذ قررت ترشيح نفسي لخوض هذه المعركة، مستقلاً عن أي حزب من الأحزاب، اعتماداً مني على الله العلي القدير ثم على وعي الشعب ووطنيته، فإني أقدم لك أيها الناخب الكريم، فيما يلي ملخصاً عن نهجي السياسي الذي استلهمته من صميم إرادتك ومصلحتك:

في حقل السياسة الخارجية:

١- النضال في سبيل تحرير أجزاء الوطن العربي من براثن الاستعمار ورجس الصهيونية.

٢- السعي الحثيث لسرعة تحقيق الاتحاد بين سورية والأقطار العربية.

٣- الكفاح ضد المشاريع الاستعمارية والأحلاف العسكرية (كحلف بغداد ومبدأ أيزنهاور) والمساعدات المشروطة.

٤- التمسك بسياسة الحياد بالنسبة إلى الصراع الناشب بين المعسكرين العالميين المتنازعين.

٥- تأييد نضال الشعوب المستضعفة والمستعمرة في حركاتها الوطنية.

٦- كسب صداقة الدول غير الاستعمارية جميعها والتعامل معها معاملة الند للند في مختلف الميادين والمجالات.

٧- اتباع مبدأ التعايش السلمي الذي أقرته دول مؤتمر باندونغ بما فيها الدول العربية كوسيلة لإقرار السلم العالمي.

في حقل السياسة الداخلية:

تطبيق مبادئ الدستور نصاً وروحاً عن طريق:

١- ضمان المساواة وتأمين حقوق المواطن وكفالة الحريات العامة.

٢- ضمان العمل لجميع المواطنين وحماية العمال والفلاحين وصغار التجار والصناع.

٣- تشجيع الصناعة والزراعة وتنشيط التجارة ورأس المال الوطني.

٤- حماية اقتصادنا القومي من خطر الاحتكارات الاستثمارية والشركات الأجنبية.

٥- وضع سياسة مالية واقتصادية مستقرة ترفع الغبن عن المكلف الصغير والمستهلك الفقير، وتضمن انتعاش البلاد الاقتصادي وتنمية الثروة القومية.

٦- استثمار ثرواتنا الطبيعية والبترولية والمعدنية استثماراً وطنياً.

٧- رعاية الأسرة وتأمين حقوق المرأة ووضع نظام للضمان الاجتماعي وحماية الصحة العامة.

٨- توجيه التربية والتعليم توجيهاً قومياً عربياً صحيحاً وإنشاء جيل قوي مؤمن بالله متحل بالأخلاق الفاضلة والمثل العليا.

٩- تشجيع الرياضة ومنظمات الفتوة والشباب والكشفية ورعاية الفنون والتقاليد الشعبية وحماية الآثار.

١٠- تقوية الجيش وتسليحه ومده بأسباب القوة والمنعة كي يتمكن من حماية الوطن وسحق كل عدوان عليه.

١١- تعديل قانون الانتخاب تعديلاً أساسياً يكفل حرية الناخب وصحة تمثيل الشعب في المجلس النيابي والمجالس البلدية.

١٢- تطهير أجهزة الحكم والإدارة ومنع الفوضى والفساد والاستغلال والثراء غير المشروع على حساب الدولة والشعب.

١٣- تقوية أجهزة الأمن الداخلي لحماية البلاد من خطر المؤامرات والمتآمرين والقضاء على أوكار الاستعمار ونشاط عملائه الداخليين.

١٤- حماية استقلال القضاء حماية مطلقة من تجاوز السلطات الأخرى عليه ومن نفوذ الأحزاب والسياسيين والمتنفذين.

١٥- تأمين مطالب القضاة والموظفين المشروعة وضمان حصانتهم من النقل والعزل التعسفي.

دمشق: ١٣ رمضان ١٣٧٦
١٣ نيسان ١٩٥٧

الخطاب الملقى في المهرجان الختامي يوم الاثنين ٢٩ رمضان ١٣٧٦ و ٢٩ نيسان ١٩٥٧

أيها الشعب الأبي

ها نحن أولاءِ على غير ميعاد لأن موعدنا جميعاً لأمثل هذه المناسبة الانتخابية كان بعد نيف وعام، ولكن شاءت إرادة المستعمر العاتي أن يمتحن إرادتنا في هذا الظرف الخطير بالذات، فكانت المؤامرة الرهيبة على سلامة بلدنا واستقلال وطننا، وجرت المحاكمة الكبرى التي رافقناها جميعاً، وصدرت الأحكام الجنائية بحق المتآمرين الخونة وسقطت النيابة عمن أرادوا بيع الوطن. وما كانت هذه المعركة الانتخابية لتنشب لو حافظ هؤلاء النواب على الثقة الغالية التي منحهم الشعب إياها. وبروح رياضية مجردة بعيدة عن الأحقاد والضغائن؛ وحرصاً مني على تجنب أسباب الفتنة والتفرقة في ظروف نحن أحوج ما نكون فيها إلى مزيد من التضامن والاتحاد والمحبة، قررت خوض هذه المعركة مستقلاً عن أي حزب من الأحزاب متكلاً على الله العلي القدير وعلى وعي الشعب ووطنيته. وقد أعلنت ذلك صراحة في برنامجي الانتخابي وأوضحت منهجي السياسي في الحقلين الخارجي والداخلي. وهو نهج من يريد لوطنه الحرية والسيادة المطلقة؛ ولأمته العزة والكرامة. وهو بيان واضح لا يخرج في خطوطه الكبرى عن اتجاه السياسة العربية التحررية التي يقودها بطل العروبة جمال عبد الناصر وقادة العرب الأحرار. كما أكدت في السياسة الداخلية ما نصت عليه مواد بارزة من الدستور للمبادئ والأهداف التي أعلنتها متبعاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾.

وقد أيدتني أحزاب سياسية عديدة جمعتها المصلحة العليا على صعيد الجبهة القومية البرلمانية وأنا مستقل عنها.

واتفقت جميعاً على دعمي وتأييد الخطة التي رسمتها بنفسي وهي خطة من أحب وطنه وكافح المستعمرين والطغاة، وسعى إلى تحقيق أهداف أمته في التحرر والوحدة. وقد راع المواطنين الأشراف وراعني، وأنا أحمل مثل هذه الروح الخطيرة المجردة، دعاية السوء وتلك الحملة الظالمة التي راحت تستغل الدين، والدين الحق براء منها، وتفتري الكذب والبهتان والله لا يحب كل أفاك أثيم، وتتهمني في ديني وأنا المؤمن بربي وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره منه سبحانه وتعالى، وتحاول النيل مني وأنا ابن دمشق العربي الأصيل المعتز بقوميتي والفخور بالأمة العربية التي لم أجد أدق من وصف الله تعالى بأنها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وكما أنني لم أفكر في يوم من الأيام أن أتخذ من الدين مادة للاتجار والاستغلال ووسيلة للافتراء على الناس بالأضاليل وقذف المؤمنين بالأباطيل، كذلك لم أسمح لنفسي أن أقابل تلك الحملة الهوجاء بمثلها وقد كفاني مؤونة الرد عليها ودحضها وفضح أغراضها والتحذير من مساوئها ونتائجها لفيف كبير من رجال الدين الأخيار كأصحاب السماحة المفتي العام للجمهورية العربية السورية وقاضي الشرع الشريف ونقيب السادة الأشراف وغيرهم من السادة العلماء الحريصين حقاً على حرمة الدين ومصلحة الوطن. إن آدابي وأخلاقي المستمدة من آداب الإسلام وأخلاق العرب منعتني من مجاراة الجهة المنافسة في أساليب الاستفزاز التي اتبعتها والتي تبتغي من ورائها إثارة الفتنة والاضطراب أكثر مما تبتغي الدعاية الانتخابية لمبادئها ومرشحها. وإني إذ أعف عن موجهي تلك الحملة الرعناء الظالمة لإيماني بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ

﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾. أعلن في هذا المهرجان الانتخابي الختامي أنني قابل سلفاً بكلمة الشعب الذي هو صاحب المصلحة العليا وله القول الفصل في اختيار ممثليه.

والآن أيها الشعب الكريم أنت مدعو يوم ٤ أيار القادم لقول الكلمة الحاسمة في هذه المعركة الانتخابية التي جرت في هذا الظرف السياسي الخطير لتكون بمثابة استفتاء لك في الاتجاه الذي تختاره بنفسك وفي المؤامرات الاستعمارية التي تحاك ضد سلامتك في الداخل والخارج وأنت ولا شك محيط بأهدافها ومراميها ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

رياض المالكي

مقررات مؤتمر باندونغ المنعقد في شهر نيسان ١٩٥٥

أقر مؤتمر باندونغ للحكومات الإفريقية الآسيوية المبادئ التالية:

١- احترام حقوق الإنسان الأساسية وأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

٢- احترام سيادة ووحدة أراضي جميع البلدان.

٣- الاعتراف بالمساواة لجميع العروق وبالمساواة لجميع الأمم كبيرها وصغيرها.

٤- الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى.

٥- احترام حق كل بلد في الدفاع الفردي والجماعي وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

٦- أ الامتناع عن استخدام الاتفاقيات الدفاعية الجماعية في خدمة المصالح الخاصة لأية دولة من الدول الكبرى.

ب- امتناع أي بلد عن الضغط على البلدان الأخرى.

٧- الامتناع عن الأعمال والتهديدات العدوانية أو التهديد باستعمال القوة ضد وحدة أراضي أي بلد أو ضد الاستقلال السياسي لأي بلد.

٨- تسوية جميع النزاعات الدولية بالوسائل السلمية كالمفاوضات والمصالحة، والتحكيم أو التسوية القانونية، وكذلك بأية وسائل سلمية أخرى يختارها الطرفان، وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

٩- العمل على خدمة المصالح المشتركة والتعاون.

١٠- احترام العدل والالتزامات الدولية.

ويعلن مؤتمر البلدان الآسيوية والإفريقية يقينه من أن التعاون الودي وفقاً لهذه المبادئ من شأنه أن يساهم بنجاح في صيانة السلم والأمن الدولي، فيما يساعد التعاون في الميادين الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، على تحقيق الازدهار والرخاء الشاملين.

إن مؤتمر البلدان الآسيوية والإفريقية يوصي بأن تدرس البلدان الخمسة الداعية مسألة عقد المؤتمر التالي بعد استشارة سائر البلدان المشتركة ذات العلاقة حول هذا الأمر.

مستخلص

كتاب يشتمل على مذكرات تضم حصيلة آراء أحـــد السياســـيين السوريين الذين شاركوا في العصر الحديث خلال الأحداث الســـاخنة لسورية في خمسينات القرن العشرين وستيناته؛ تلك المرحلة المضطربة..

الكتاب مهم لا لأنه يتحدث عن تفاصيل تلك المرحلة وما بعـــدها، بل لأنه كذلك يمثل خفايا سياسية، تحمل نوعاً من المصارحة، يسوقها المؤلف من مذكراته الشخصية ومعايشته للأحداث بدمشق وســـورية واضطراباتها.

ثم إن الكتاب يركز على تجربتين للمؤلف ويعدّهما هامتين: أولاهمـــا في سياق مشاركاته السياسية، وقد تنبه فيها إلى التصـــدع الخطـــير في انقسام السياسيين إلى يمين ويسار، وتفرقهم شيعاً وأحزابـــاً متنـــاحرة يتلهون عن العدو الجاثم.

وجاءت تجربته الثانية عندما أدى فريضة الحج، فعـــرف الطريـــق الصحيحة إلى توحيد الكلمة وجمع الشمل.

في الكتاب تجربة عملية وروحية لسياسي قامت من أجلـــه دمشـــق وقعدت ذات يوم.

فماذا لديه؟

Abstract

This book includes memories that compile the outcome of the views of one of the Syrian politicians who have played a prominent role in the modern age during the warm incidents that Syria suffered in the fifties and sixties of the twentieth century: the stage which witnessed a lot of disturbances.

The significance of the book does not lie in the fact that it talks about the details of that stage and the days to follow; rather, because it, moreover, presents political secrets with an air of frankness, which the writer derives from his personal diaries coexistence with the events and disturbances in Syria, and Damascus in particular.

On the other hand, the book highlights two forms of experience that the writer had, and which he considers significant. The first was in respect of his political participations, during which he detected the serious dissention that divides the politicians into right and left and disperses them into conflicting factions and parties diverted from the lurking enemy.

His second form of experience projected when he performed pilgrimage, which acquainted him with the appropriate method of unifying the word and attaining reunion.

The book involves a practical and spiritual experience of a politician for whom Damascus was, one day, turned upside down.

So, what could he have presebted?

A RETURN TO THE STRAIGHT PATH
Al-'Awdah ilá Sawā' al-Sabīl
Riyāḍ al-Mālikī

كتبُ المذكرات والسير الذاتية ضرب من ضروب الأدب، تقدم فناً خاصاً، فتجد فيه مالا تجد في غيره من الكتب.

مشاهير كثيرون من سورية كتبوا مذكراتهم، وقدموا فيها صوراً للتاريخ حيّة، تحركوا هم من خلالها، وربما حركوا الحوادث وتطورات التاريخ.

وهذا الكتاب لسياسي وزير سابق، عاش أياماً حاسمة في تاريخ سورية عامة وتاريخ دمشق خاصة.

وهو يقف في كتابه هذا وقفة التأمل، ويستنبط من مجمل مشاركاته دروساً وعبراً.

ويخلص إلى نتائج تحليلية، بعدما صوّر الواقع الذي عاش فيه وخاض دوامته.

فرات
www.furat.com
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج الالكترونية

SPOUR ALWANI 2007

